سادسًا: الإصلاح والنهضة

١- العرب من النهضة الأولى إلى الصحوة الثانية.

٢- مراجعة الإصلاح الدينى.

٣- الإخوان المسلمون بين قرار الحل والواقع السياسى.

٤- تطبيق الشريعة ووحدة الأوطان.

٥- الإسلام فى الداخل.

٦- الإسلام فى الخارج.

٧- الأعلام الوطنية والشعارات الدينية.

٨- هل تقوم حركة تحرر عربى ثانية؟

٩- الوطن والعروبة والإسلام.

١٠- ليس حبا فى الديموقراطية.

١١- الجذب والطرد.

١٢- الإصلاح ضرورة عاجلة.

١٣- الأحزاب الإسلامية بين الشكل والمضمون.

obeikan.com

obeikan.com

١- العرب من النهضة الأولى إلى الصحوة الثانية (*)

كثر الحديث عن فجر النهضة العربية الأولى التى استغرقت قرنين من الزمان، التاسع عشر والعشرين، بداية بميلاد الطهطاوى عام ١٨٠١ حتى هزيمة يونيو حزيران عام ١٩٦٧م. وتشعب الحديث عن إنجازاتها وعصرها الليبرالى الذى أنهته الثورات العربية فى منتصف القرن العشرين. وبدأ الحنين إليه من جديد لتعثر قضية الحريات العامة، وغياب ديموقراطية الحكم والتعددية السياسية والحزبية والبرلمان والدستور لحساب نظام الحزب الواحد، الحزب الحاكم حتى ولو كانت هناك واجهات ديموقراطية، وانتخابات مزورة، وأحزاب وهمية لا وجود لها فى الشارع السياسى، ومجالس نيابية توافق أكثر مما تعترض، وتؤيد أكثر مما تنتقد.

وأحيانًا يتم التوجه إليها بحسبان أنها أفضل ما أبدعنا فى تاريخنا الفكر المعاصر. ولا توجد أسماء أكثر ذكراً من رواد النهضة العربية المعاصرة، الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا وحسن البنا وسيد قطب والجماعات الإسلامية المعاصرة فى الحركة الإصلاحية، والطهطاوى وخير الدين التونسى وعلى مبارك وطه حسين والعقاد ومحمد حسين هيكل وعلى عبد الرازق وخالد محمد خالد فى التيار الليبرالى، وشبلى شميل وفرح أنطون ويعقوب صروف ونيقولا حداد وسلامة موسى وإسماعيل مظهر وزكى نجيب محمود فى التيار العلمى العلمانى.

وكلما تأزم الحاضر تم الرجوع إلى الماضى. وكلما عم إفلاس الحاضر تم استدعاء إبداع الماضى حتى ولو كان محدوداً. فالإفلاس عام، والإبداع الفكرى فى معظمه قد توقف. وننظر إلى عصر النهضة العربية الأول بوصفه حلمًا جميلاً استيقظنا بعده على واقع تسوده المحافظة الدينية والخواء الفكرى. والاستقطاب بين خطابين، السلفى

(*) جريدة الاتحاد: ١٦ فبراير ٢٠٠٢م.

والعلمانى، يصل إلى حد الاقتتال العلنى كما هو الحال فى الجزائر أو الصراع السياسى كما هو الحال فى مصر وتونس. وطالما استمر الحنين إلى الماضى فإنه لن يعرف الحاضر وطبيعته ومكوناته. وتغيب رؤية المستقبل واحتمالاته. ولا تبقى إلا الانفجارات العشوائية هنا وهناك كما يفعل البركان الهادئ فى الظاهر، الفائر فى الباطن.

لذلك كان من الضرورى استدعاء الذاكرة التاريخية، ومراجعة عصر النهضة العربى الأول. فالذاكرة ليست مجرد اجترار للماضى كما حدث إبان عصر الشروح والملخصات بعد ابن خلدون، عندما عجزت الحضارة عن أن تبدع بالعقل فاجترت بالذاكرة ما أبدعته من قبل. الذاكرة هى رصيد الوعى التاريخى بما تحدث فيه من تراكم تاريخى يساعد على وعى الذات الحضارى بذاته وبمساره التاريخى ومن أجل التخطيط على الأمد الطويل، من الماضى إلى الحاضر نهضة أم سقوطًا، ومن الحاضر إلى المستقبل استمرارًا للسقوط أو تأسيسًا لنهضة عربية ثانية.

إن الحنين إلى الماضى واستدعاء الذاكرة التاريخية ظاهرة مرضية لأنها ضد مسار الزمن، وهروب من الحاضر، وانسداد المستقبل، وكأن الزمان قد غير مساره من الحاضر إلى الماضى وليس من الحاضر إلى المستقبل. ومن ثم فإن تحليل الوعى التاريخى والتجارب الماضية يخفف من قوة جذبه. كما أن نقدها يساعد على التعليم منها، واكتساب الخبرات التاريخية. فبدلا من أن يدور الزمن إلى الوراء يتجه إلى الأمام. وهى ظاهرة صحية مهما كانت الصعوبات فى الفهم والأخطاء فى التحليل. فالتجاوز ماهية الزمن والوعى على حد سواء.

وإذا ما استدعينا الماضى بالذاكرة فإننا مازلنا نكرر مواقف النهضة العربية الأولى دون تطويرها بالرغم من أنها حققت أهدافها المرحلية. لم نطور مواقفها الأولى وتركناها عرضة للفعل ورد الفعل وتغير الأحداث ودون أن نؤثر فيها. ومازلنا نختار إحداها، الإصلاح الذى يبدأ من الدين، والليبرالية التى تبدأ من الدولة، والعلمى العلمانى الذى يبدأ من الطبيعة والمجتمع. ومازالت محاولات الجمع بين أكثر من تيار مستمرة فى سلسلة من الحوارات وبخاصة بين الفكر القومى والفكر الإسلامى. ومازال الشوط بعيدًا لإجراء حوارات متشابهة بين الفكر القومى والفكر الليبرالى أو بين القومى والماركسى أو بين الليبرالى والإسلامى أو بين الليبرالى والماركسى أو بين الإسلامى والماركسى فى ستة حوارات ممكنة. فالجمع قوة، والفرقة ضعف.

ومازال الانتقاء سائدًا من الفكر الإسلامى أو الفكر الغربى طبقًا لحاجات العصر. فالكل يبغى الإصلاح سواء كان سلفيًا أم علمانيًا. فريق يبحث فى أحد التيارات الثلاثة شرعية لوجوده وكأن تاريخنا المعاصر توقف على بدايات النهضة العربية الأولى وبداية مزاحمة الوافد الجديد الموروث القديم، والرغبة فى التحرك وإحداث مبادرة تاريخية جديدة فى نهاية الدولة العثمانية وعصر السلطنة.

وقد سقط ذلك كله بعد هزيمة يونيو حزيران عام ١٩٦٧م. بعد أن وضعت القومية العسكرية نهاية الليبرالية الغربية. واستمر اضطهاد الحركة الإسلامية قبل عام ١٩٥٢م فى العصر الليبرالى، واستشهاد حسن البنا عام ١٩٤٨م، وبعد عام ١٩٥٢م، واستشهاد سيد قطب فى عام ١٩٦٥م، وانتهاء الماركسية إما بدخولها فى أحلاف مع القومية أو التخلى عنها كلية بعد انهيار النظم الاشتراكية عام ١٩٩١ أو التكيف مع العولمة باسم الواقعية السياسية أو الجدل التاريخى. لقد تشابك الواقع أكثر من ذى قبل، وصعبت التفرقة بين الوطنى والعميل، بين الصديق والعدو، بين البطل والخائن. وتساءل البعض: العراق عدو أم صديق؟ أمريكا حليف أم عدو؟ إسرائيل جار قادر على تقديم خدمات أو استعمار استيطانى توسعى يهدد الكيان العربى؟

وصل العرب إلى نهاية المطاف، إلى مأزق تاريخى بعد أن جربوا الأيديولوچيات الأربعة التى سادت الفكر العربى المعاصر منذ أكثر من قرن ونصف، الليبرالية والقومية والماركسية والإسلامية. سادت الليبرالية فى مصر والشام ومازالت مستمرة فى الكويت والأردن ولبنان واليمن والمغرب، ولكنها ليبرالية يتحكم فيها الأمير أو الملك أو العسكرى، ليبرالية محسوبة لخدمة الإمارة أو المُلك أو الجيش. وسادت القومية فى مصر والشام والعراق بفضل حزب البعث الاشتراكى. وامتدت فروعه على استحياء فى باقى الأقطار العربية « ودخلت الماركسية فى حلف مع حزب البعث فى سوريا والعراق. واقتتل الرفيقان الماركسيان فى جنوب اليمن بعد أن حكمت بمفردها. ثم انقسمت على سن القبلية. وتستمد أنظمة الحكم كلها شرعيتها بطريقة أو بأخرى من الإسلام دون الاعتراف بالحركة الإسلامية بحسبانها تنظيمًا سياسيًا من أجل نزع سلاح الإسلام من الخصوم السياسيين. فإذا ما حدث انقلاب إسلامى سادته المحافظة التاريخية الموروثة، وادعى تطبيق الشريعة الإسلامية وبخاصة قانون العقوبات وعادات

الزى خاصة للنساء دون إعطاء الناس حقوقهم أولا فى الغذاء والكساء والتعليم والعلاج والسكن من بيت المال. احتاج العرب إلى تجاوز المدخل الأيديولوچى للواقع، فكلها فى الهم سواء. ضاعت نصف فلسطين فى عام ١٩٤٨م فى العصر الليبرالى، وضاع النصف الآخر فى عام ١٩٦٧م فى العهد القومى. والمقاومة الممثلة فى جهاد، وحماس، وحزب الله، محاصرة فى الداخل والخارج فى عصر الصحوة الإسلامية. وكلها الآن تبدو عاجزة عن تحقيق أهداف الأمة فى تحرير الأرض، وحرية الموطن، والعدالة الاجتماعية، ووحدة الأمة، والدفاع عن الهوية، والتنمية المستقلة، وحشد الجماهير وتجنيد الناس. وبارقة الأمل الوحيدة المحتلة فى حركة المقاومة الإسلامية محاصرة داخل فلسطين وخارجها من الأنظمة العربية. وتسمها القوى الغربية بالإرهاب الذى يجب إعلان الحرب عليه.

ويتشاءم الجميع، ويشعرون بأنهم فى عصر الإفلاس التاريخى. ويزداد الإحساس بالإحباط واليأس كلما عم العجز، وغامت الرؤية، وانسد الطريق. فالمقاومة الفلسطينية بمفردها. تقاوم النساء والأطفال والشباب فيها بالحجارة أعتى قوة عسكرية وعتادها من الدبابات والطائرات والصواريخ. والأنظمة العربية صامتة. ولا تتحرك إلا على استحياء باستجداء العفو، والإصرار على أن السلام خيار استراتيچى حتى فى غياب الطرف الآخر الذى لا يعرف إلا الحرب. والرأى العام الأوروبى بدأ يتراجع عن مواقفه المتقدمة بالنسبة للقضية الفلسطينية، وتحت ضغط الولايات المتحدة الأمريكية إلى حد وصف العمليات العسكرية الاستشهادية التى تقوم بها المقاومة الفلسطينية بالإرهاب. وتم العدوان على أفغانستان، والبقية تأتى، العراق وإيران وسوريا ولبنان والصومال والسودان واليمن. والعرب فى عصر العولمة تائهون، متشرذمون، لا يستطيعون المنافسة مع الشركات المتعددة الجنسيات، ولا مع مجموعة الدول الثمانية. ويخطبون ودّ الاتحاد الأوروبى لعله يقبل بعض الدول العربية المطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط. ومازالت محاولاتهم مستمرة لإنشاء تجمعات إقليمية مثل السوق العربية المشتركة، ومجموعة الأربع والعشرين التى تضم أكثر الدول تصنيعًا فى آسيا مثل إندونيسيا وماليزيا وتركيا أو فى أفريقيا مثل مصر.

وفقد العرب الحليف التقليدى، النظم الاشتراكية فى أوروبا الشرقية وآسيا.

وسبقت إسرائيل العرب إلى الصين لتحديث سلاح الطيران فيها. وأسرعت بالاتصال بالجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى، فالتجارة أكثر ربحًا مع إسرائيل من الإسلام مع العرب والمسلمين. بل إن الهند صديق العرب التقليدى من أيام غاندى وسعد زغلول، ونهرو وعبد الناصر، تحولت بعد صعود اليمين الهندى إلى السلطة إلى حليف إسرائيل لتطبق على باكستان، وتدمر سلاحها النووى من الشرق والغرب. والشقيقة الكبرى مصر لا تقوى على هذا العالم. وما فيها يكفيها.

ويهمس البعض: ولكننا على أعتاب صحوة عربية ثانية. فالأرض حبلى، والميلاد الجديد قادم. لقد خُصِّب العرب بفضل المهانة والذل والعجز والجرح منذ هزيمة حزيران يونيو عام ١٩٦٧م، وانقلاب الثورات العربية من داخلها إلى ثورات مضادة لتلحق بالعالم ذى القطب الواحد بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية. لقد انتصرت جنوب أفريقيا. وأنهت النظام العنصرى الذى حكمها منذ عام ١٩٤٨م عام تقسيم فلسطين، عنصرية بيضاء فى جنوب أفريقيا وفى فلسطين فى وقت واحد. وقبلها بعام تم تقسيم الهند إلى الهند وباكستان لعزل الإسلام عن محيطه الطبيعى فى القارة الهندية. وقامت الجمهوريات الإسلامية فى وسط آسيا. وتم إنقاذ الإسلام فى أوروبا الشرقية بعدما تعرض لخطر الاستئصال من العنصرية الصربية. وامتدت الصحوة الإسلامية إلى كل مكان. وأصبح الإسلام هو الدين الثانى فى أوروبا وأمريكا وآسيا. بقيت فلسطين تحت الإرث الاستعمارى الطويل مع كشمير والشيشان، وسبته ومليليه فى المغرب، وبعض القواعد الأجنبية الأمريكية فى الخليج.

وإذا كان الانفجار قادمًا، والطوفان هو الغالب فإنه من الحكمة الاستعداد له عن طريق الوعى التاريخى بتجربة النهضة العربية الأولى، إنجازاتها واخفاقاتها والتمهيد لهذا الميلاد القادم حتى يتحرك الحاضر، ويفك أسره من حصار الزمن.

* * *

٢- مراجعة الإصلاح الدينى(*)

مما لا شك فيه أن أهم تيارات الفكر العربى الحديث هو الإصلاح الدينى الذى يبدأ من الدين، وينتهى إلى الدولة، تيار الأفغانى وتلاميذه فى مصر، والكواكبى والقاسمى فى الشام. وعلال الفاسى فى المغرب، وعبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمى، ومالك بن نبى فى الجزائر، والسنوسى فى تونس، وعمر المختار فى ليبيا، والمهدية فى السودان، ومحمد بن عبد الوهاب فى الحجاز، والألوسيان فى العراق، والشوكانى فى اليمن وغيرهم. يبدأ من الدين بالمعنى الشائع، العقائد والشرائع، العبادات والمعاملات. ولا يضعه ضمن منظومة أوسع مثل التراث الذى يشمل العلوم القديمة، النقلية، والعقلية النقلية، والنقلية الخالصة. ويضم الأمثال العامية والحكايات الشعبية والمواويل والملاحم التى امتزج فيها التراث بتجارب الشعوب. لذلك يظل الدين فى التيار الإصلاحى فى إطار المقدس الذى لا يمكن تناوله بالتحليل التاريخى. فى حين أن التراث من صنع العلماء. هم رجال ونحن رجال نتعلم منهم ولا نقتدى بهم.

لذلك ظل التردد قائمًا فى تناول العلوم القديمة، خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الخلف. ظل الأفغانى أشعريّا. وتحول محمد عبده من الأشعرية إلى الاعتزال إلى النصف، فظل أشعريّا فى التوحيد وأصبح معتزليّا فى العدل. يستند إلى الماتريدية فى آسيا الوسطى. وارتكن محمد بن عبد الوهاب إلى النص، يسلطه على مساوئ العصر، دون تنظير أو تعقيل، وكما هو الحال عند المدرسة السلفية الجديدة عند ابن تيمية وابن القيم أو القديمة عند ابن حنبل. صحيح أن محمد عبده أضاف فى « رسالة التوحيد» جزءًا جديدًا، هو أن الوحى ممكن الوقوع، وأنه انتشر بسرعة فى التاريخ،

(*) جريدة الزمان: ٢٣ فبراير ٢٠٠٢م.

مبرزًا مفهومى الواقع والتاريخ، ومؤسسًا بذلك فلسفة فى التاريخ بوصفه تقدمًا وليس بوصفه انهيارًا، كما كان الحال فى المفضول والأفضل، وخير القرون قرنى، وظهور الإسلام غريبًا وعودته غريبًا كما بدأ، والانهيار من الخلافة إلى الملك. ومع ذلك استمر علم الكلام بنسقه الأشعرى، نظرية الذات والصفات والأفعال، وضرورة النبوة لإكمال العقل. وصحيح أن «الحصون الحميدية» لحسين الجسر حاولت أن تضع نتائج العلوم الطبيعية الحديثة ضمن طبيعيات علم الكلام لتطويره. ومع ذلك ظلَّت البنية التقليدية للعلم هى السائدة. أما الفلسفة فظلت كما تركها ابن سينا، المنطق والطبيعيات والإلهيات، دون تجديد أو تطوير أو إضافة للإنسانيات فى السياسة والاجتماع والتاريخ. كما ظل التصوف كما تركه الغزالى من علوم الذوق دون أن يحاول أحد من المحدثين إعادة بنائه من المحور الرأسى إلى المحور الأفقى، ومن الانعراج إلى أعلى إلى التقدم إلى الأمام، ومن المقامات والأحوال السلبية مثل الصبر والتوكل والورع والرضا والخشية والخوف والزهد إلى مقامات وأحوال أكثر إيجابية مثل التمرد والرفض والمقاومة والاعتراض والاحتجاج ونفاذ الصبر. صحيح أنه تم بعض التحديث الجزئى للعلوم النقلية الخالصة. ففى علوم القرآن تم إبراز القصص الفنى والتصوير الفنى عند خلف الله، وسيد قطب، وتحليل الخطاب، ومفهوم النص، عند ناصر حامد أبو زيد. وتم الانتقال من نقد السند إلى نقد المتن فى علوم الحديث. وأعيدت قراءة السيرة فى «محمد رسول الحرية» وفى «منزل الوحى» و«على هامش السيرة». وبرز التفسير الاجتماعى فى «تفسير المنار»، والفنى فى «ظلال القرآن». كما تم إبراز أهمية المعاملات فى علوم الفقه، والمقاصد فى علم أصول الفقه، ولكن ظلت كلها محاولات جزئية محدودة لم تستطع الوقف أما التيار التقليدى التاريخى الجارف.

كان الغرب فى التيار الإصلاحى نمطًا للتحديث، لا فرق بينه وبين التيار الليبرالى عند الطهطاوى، وخير الدين، أو التيار العلمى العلمانى عند شبلى شميل. فالمثل الأعلى هو المجتمع الديموقراطى الحر الذى يقوم على التعددية الحزبية والمجالس النيابية والدستور وحرية الصحافة والرقابة على جهاز الدولة وتربية البنات والبنين. البداية من الأنا والنهاية عند الآخر. العداوة للغرب الاستعمارى والصداقة للغرب الليبرالى. العداوة للغرب المادى كما عبر عن ذلك الأفغانى فى «الرد على الدهريين» مضافًا إليهم الاشتراكيين (السوسياليست)، والشيوعين (الكومونيست) والعدميين (النهيليست).

وهو خلط بين الداروينية والاشتراكية، وبين العلم والدين. فى حين أخذ محمد عبده سبنسر نبراسًا له فى التربية، وهو أيضًا المادى الآلى. وعالج علال الفاسى مفهوم الحرية، وراجع المفاهيم الغربية لديكارت وكانط. وحاول تأسيس مفهوم إسلامى للحرية. أما الكواكبى فقد اعتمد على الفييرى فى «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد»، نقدًا للتسلط، ودفاعًا عن الحرية فى ظروف الوطن العربى والعالم الإسلامى. وعاد سيد قطب فى «خصائص التصور الإسلامى ومقوماته ليرد على ألكس كاريل «الإنسان ذلك المجهول» دفعًا للنسبية التى قد تقود إلى العدمية، ومبينًا رسالة الإنسان فى الحياة وخلافته لله فى الأرض. واختار محمد إقبال فى الهند الذاتية عند فشته، والواجب عند كانط، والجدل عند هيجل، والدافع الحيوى عند برجسون، والقوة عند نيتشه من أجل رد الوعى للأمة ويقظة الفرد. وفضل أحمد خان فى الهند من قبل العلم والمدينة. ورأى محمد عبده أن الإسلام هو الباعث على العلم والمدنية أكثر من النصرانية. فقد خرجا من الإسلام، فى حين أنهما خرجا على النصرانية بوصفهما رد فعل عليها. مازال الموقف من الغرب فى التيار الإصلاحى إما الاقتباس من روافده المتعددة وإما نقد تيارات أخرى فيه يحكمه الفعل ورد الفعل. ويتحكم فيه الانتقاء العشوائى. ولا يصب موقف كلى شامل من الغرب لرده إلى حدوده الطبيعية، وإرجاعه إلى تاريخيته حتى لا تنبهر به الحضارات الأخرى. ويقضى على أسطورة الثقافة العالمية، ويتوقف الانبهار به بحسبانه نموذجًا لليبرالية والعقلانية والعلمية ومثل التنوير. فلكل حضارة نموذجها من داخلها بعد تجديدها طبقًا لحاجات العصر.

كانت آلية الإصلاح الأولى إقناع الحكام والسلاطين أو الخروج عليهم إذا رفضوه. فالله يزع بالسلطان ما لم يزع بالقرآن. والتغير الاجتماعى عن طريق السلطة أسرع وأنجع وأبقى من التغير الاجتماعى عن طريق الشعب أو الثقافة. فالمجتمع أبوى، والأسلوب تسلطى. والمستبد المستنير خير من المستبد الأبله. والمستبد العادل أفضل من المستبد الظالم. وهو طريق مسدود لأن البنية لم تتغير، وهى بنية الاستبداد سواء كان مستنيرًا أم جاهلاً. والسلطة واحدة سواء كانت تعمل لصالح الشعب أم ضده. ولقد حاول الأفغانى ذلك مع السلطان عبد الحميد. فكفره فقهاء السلطان. وربما سمه السلطان. وقامت الثورة العربية بناء على تعاليمه لمواجهة الخديوى توفيق، قوة الجيش فى مقابل قوة القصر والسلطان. فانتهت إلى الاحتلال البريطانى بقوة الاستعمار.

واختبأ عبدالله النديم وهو يقوم بتثوير الثقافة الوطنية تحت الأرض. ولم يحدث أثره إلا فيما بعد فى إشعال الروح الوطنية فى الأحزاب السياسية التالية. كما حاول محمد بن عبد الوهاب ذلك مع آل سعود، تبنى الدولة الوهابية حتى تدعم الوهابية الدولة. فقامت الدولة السعودية الوهابية باتفاق السلطتين الدينية والسياسية. ومن يصطدم بالسلطة ينتهى إلى الخسران المبين كما حدث لحسن البنا عندما اصطدم بالقصر فصفاه، وعندما اصطدم الأخوان بالضباط الأحرار فخسروا معركة عام ١٩٥٤م. ودخل سيد قطب السجن، وتحول فى الداخل من الفكر الإسلامى الاشتراكى إلى الفكر الإسلامى التكفيرى تحت وطأة آلام التعذيب. واستشهد فى صيف عام ١٩٦٥م بتهمة ثانية، قلب نظام الحكم. ومازال الاستقطاب قائمًا يسقط بسببه الشهداء من الطرفين. فالدين سلطة، والدولة سلطة. وإن فشل التعاون بين السلطتين يقع الصدام بينهما. وغالبًا ما تكون الحركة الإصلاحية هى الضحية.

لذلك لم تصمد الحركة الإصلاحية طويلاً. وبدأت فى التراجع جيلاً وراء جيل لعدم استطاعتها الصمود أمام الأحداث، وتطوير نفسها طبقًا للتحديات الجديدة. فبعد هزيمة العرابيين الذين قاموا بالثورة ضد السلطان بناء على تعاليم الأفغانى ارتد محمد عبده عن هذا المنهج التصادمى مع السلطة، والتناطح مع رمزها. وآثر البداية من أسفل، إعدادًا للشعوب بالتعليم، وإصلاح المحاكم الشرعية، واللغة العربية، ومناهج التربية التى تقوم على العقل وليس على النقل. وبعد أن قامت الثورة الكمالية فى تركيا فى عام ١٩٢٣م، وانتصر حزب تركيا الفتاة وجماعة الاتحاد والترقى على الإصلاحيين والعثمانيين معًا، خشى رشيد رضا أن يتكرر الأمر فى مصر وباقى العالم الإسلامى. ويستولى العلمانيون على الحكم، وبخاصة على عبد الرازق وقد كتب كتابه الشهير «الإسلام وأصول الحكم»، داعيًا للدولة العلمانية والحكم المدنى. فارتد سلفيًا وهابيًا، نصيرًا لابن تيمية وابن القيم، ومرتدًا إلى أصولهما الحنبلية. لم تقو حركة الإصلاح على الصمود أمام أحداث العصر. وفى كل مرة تتراجع أكثر فأكثر. ويعود الإصلاح القصير المدى إلى التيار التاريخى المحافظ الذى تمتد جذوره إلى ما يزيد على ألف العام. وما إن وقع الاصطدام بالسلطة فى عام ١٩٥٤، ارتد سيد قطب من الشعر والنقد الأدبى والإسلام الاشتراكى والتصور الإسلامى إلى الإسلام الغاضب الذى يقوم على التكفير وتقسيم العالم إلى ثنائيات متعارضة: الإسلام والجاهلية، الإيمان

والكفر، الله والطاغوت. ولا صلح بين الطرفين المتعارضين. فوجود أحدهما مرهون بالقضاء على الآخر. وآلية ذلك جيل قرآنى فريد تحت شعار «لا إله إلا الله». ولما ساد الكفر وعمت نظم الطغيان فلا حل إلا اللجوء إلى العمل السرى تحت الأرض، وتكفير المجتمع، والخروج عليه. ومن ثم نهايات الإصلاح غير بداياته، ونتائجه غير مقدماته. وانتهى إلى التآكل لصالح جماعات العنف، باستثناء أفراد قلائل، أصحاب أقلام مستنيرة بلا جماهير ولا تنظيم، تدعو إلى الليبرالية الأولى التى كانت نموذج الجيل الأول من المصلحين.

* * *

obeikan.com

٣- الإخوان المسلمون بين قرار الحل والواقع السياسى(*)

بمناسبة قرار الحل الصادر فى عام ١٩٥٤م لجماعة الإخوان المسلمين تحدثت الصحف وعلى صفحاتها الأولى عن «الإخوان المسلمين». وحملت أخبارها مثل وفاة مرشدها، واحتمالات تعيين مرشد جديد من بين عدة مرشحين، مع صورهم وتاريخ كل منهم. ثم اختيار أحدهم مع ذكر خصاله وقدراته بل واستحسان سلامة انتخابات مكتب الإرشاد، وسرعة الاختيار حتى لا تترك الجماعة بلا مرشد. وتنشر صور جنازة المرشد، وعشرات الآلاف تودعه إلى مثواه الأخير تحت رعاية الدولة، وحسن تنظيم أجهزة الأمن لها، ومرورها بسلام مع إعجاب بحسن النظام بالرغم من الصورة التقليدية للجماعة بممارسة العنف وفرض الرأى بالقوة.

وينشر الإعلام أخبارهم، ويذكر اجتماعاتهم من أجل الاستعداد لانتخابات النقابات والاتحادات والجمعيات الأهلية والأندية الاجتماعية، وتُفصّل لقاءاتهم واحتمال نجاح مرشحيهم. بل ويُستفاض فى خلافاتهم وانقساماتهم. فهم محط الأنظار وعناوين رئيسية فى الصفحات الأولى.

ولهم أعضاء فى مجلس الشعب، يذكرون بالاسم بعد أن تم انتخابهم ونجاحهم ورسوب مرشحى الحزب الحاكم بكل إمكاناته فى أجهزة الدولة الإعلامية والأمنية. وتنقل مداخلاتهم فى المجلس، والردود عليهم، ومحاجاتهم فى آرائهم من نواب آخرين فى مجلسى الشعب والشورى تم انتخابهم أو تعيينهم لهذا الغرض كمتحدثين غير رسميين للحزب الحاكم وكمدافعين عن النظام وبخاصة ولو كانوا أيضًا من نفس الاتجاه الإسلامى. فالإسلام ليس حكرا على جماعة سياسية واحدة من المعارضة بل قد يكون أيضا أداة فى الحزب الحاكم لتدعيم سياساته والدفاع عن نظامه باسم الدفاع عن الدولة ضد خصومها السياسيين.

(*) جريدة الاتحاد: ٦ مارس ٢٠٠٢، جريدة الزمان: ٢ مارس ٢٠٠٤م.

وفى الوقت نفسه، وعلى الصفحات الأولى أيضا توصف جماعة الإخوان المسلمين بأنها الجماعة «المنحلة» أو الجماعة «المحظور نشاطها»! وشتان ما بين الإعلام والواقع. تُذكر أخبار جماعة موجودة مع تفصيل نشاطها وفى نفس الوقت توصف بأنها «منحلة» أو «محظورة» وكأن الإعلام لا يعرف ماذا يعنى صدق الخبر أو تناقض الخبر بين الإثبات والنفى أو حتى قواعد المنطق فى استحالة الجمع بين حكمين متناقضين فى محل واحد. فلو كانت جماعة منحلة أو محظورة لما ذُكر نشاطها والإعلان عن اجتماعاتها. ولو كانت موجودة لما ذكر أنها محظورة أو منحلة. فأيهما نصدق: القانون أم الواقع؟ وهى القضية نفسها فى حياتنا العامة فى التقابل بين نص لا وجود له فى الواقع، وواقع لا وجود له فى النص. فأصبح القانون فى جانب، وحياة الناس فى جانب آخر. القانون على الورق، والواقع بلا قانون.

وفى الوقت نفسه وعلى مدى عشرات السنين دون كلل أو تعب حتى ولو مل القراء، تُهاجم الجماعة بفصائلها المختلفة وأجنحتها المتباينة بين اليمين واليسار، وتوصف بأنها جماعة التأسلم السياسى، وأن أعضاءها من المتأسلمين، وكأنه لا يوجد عدو لليسار التقليدى إلا الجماعات الإسلامية، منافسة على السلطة وتسابقا إليها حتى ولو كان على أكتاف الحزب الحاكم وبمساعدة أجهزة الأمن دفاعا عن نظام الحكم الذى يعارض اليسار، وبالرغم من الحوار المتقطع بين أحزاب المعارضة لوضع سياسات بديلة عن سياسات الحزب الحاكم وقبل دخول الحزب الحاكم فى حوار صورى مع المعارضة. مازال الوعى السياسى الوطنى بعيد المنال. ومازالت الجبهة الوطنية أو الائتلاف الوطنى غير وارد فى الأذهان بالرغم من وجوده فى أدبيات اليسار، وممارسته فى تجارب التحرر الوطنى الكبرى فى الثورة الكوبية والثورة الڤيتنامية وفى كل حركات المقاومة للاحتلال مثل المقاومة الفرنسية. ولم تشذ تجارب مصر الوطنية عن ذلك مثل ثورة عام ١٩١٩م. فقد كان سعد زغلول تلميذ الأستاذ الإمام حتى ثورة يوليو عام ١٩٥٢م. وكان نصف أعضاء مجلس قيادة الثورة تقريبا من الإخوان أو من المتعاطفين معهم. وكان قائد الثورة ومفجرها، جمال عبد الناصر، على صلة بقادتها. ينسق معهم، ويأمل فيهم. وبعد نجاح الثورة طلب من سيد قطب، شهيد الثورة فيما بعد أن يكون رئيسا لهيئة التحرير، أول تنظيم سياسى للثورة.

ويدخل الإخوان معترك الحياة السياسية منذ الإفراج عنهم فى أوائل السبعينيات لاستعمالهم للتخلص من الناصريين أعضاء النظام بعد انقلاب الثورة من داخلها إلى

ثورة مضادة. ونظرا لأنها جماعة غير مشروعة، ونشاطها محظور فإنها دخلت الحياة السياسية من الباب الخلفى بالالتفاف أو التنسيق مع الأحزاب، مع حزب الوفد مرة فى السبعينيات ثم مع حزب العمل مرة أخرى فى الثمانينيات. ونظرا للتقليد الليبرالى العلمانى للوفد فقد امتنع عن استمرار التجربة والتعاون مع جماعة سياسية تقوم على أساس دينى. واستمرت التجربة مع حزب العمل حتى تمت السيطرة عليه فانفصل عنه الاشتراكيون والناصريون وأصبح حزبا إسلاميا خالصا يقوم بدور فعال فى تنشيط الحياة السياسية المصرية. وتصبح جريدة «الشعب» أوسع جريدة للمعارضة السياسية. وتنقد الحزب الحاكم وفساد رجاله فى الصميم حتى تم الإيقاع به بانقسامه مرة وبتأييد النظام للجناح المعارض، ثم بإيقاعه فى موضوع نظرى صرف بالهجوم على رواية معروفة منذ عقدين من الزمان لإعادة نشرها فى قصور الثقافة التابعة للدولة. وقامت المظاهرات، وتعكر صفو الأمن. وظهرت الدولة بوصفها حامية لحرية الفكر، والإخوان المعارض لها. فضاعت المعارضة السياسية لوزارة الزراعة، والتطبيع مع إسرائيل، وفساد الحكم. وانهارت فى موضوع رواية. فصدر قرار إيقاف الجريدة ونشاط الحزب. ومهما صدر الحكم بإعادتهما فإن النظام قد كسب الجولة وتخلص من أقوى أعدائه بعد أن تم إيقاعه فى الشباك.

لقد طعن الإخوان فى قرار الحل الذى صدر فى عام ١٩٥٤م. ومازال الأمر معروضا على القضاء! وقد انقضى نصف قرن على ذلك بالتمام والكمال. وتغير الإخوان إلى أسوأ فى السجون تحت آثار التعذيب، وضرب السياط، وحرق أعقاب السجائر فى الجلد البشرى، ونزع الأظافر. وتغير سيد قطب صاحب «العدالة الاجتماعية فى الإسلام» و«معركة الإسلام والرأسمالية» و«السلام العالمى والإسلام» و«المستقبل لهذا الدين» و«خصائص التصور الإسلامى ومقوماته» إلى «معالم فى الطريق». وتحول من مفكر اشتراكى وطنى تقدمى حصيلة النضال الوطنى فى الأربعينيات إلى مفكر إسلامى غاضب يريد أن يثأر من نظم الأرض دفاعا عن نظام السماء، ومن حاكمية البشر إلى حاكمية الله، ومن محاور لباقى التيارات السياسية، الماركسيين والليبراليين والقوميين إلى رافض لكل الأيديولوچيات العلمانية وجاهلية القرن العشرين. ووضع تقابلا بل تناقضا بين الله والطاغوت، الإيمان والكفر، الإسلام والجاهلية، الحق والباطل، النور والظلام. ولا بقاء لأحدهم إلا بفناء الآخر. ولما كان

الحق هو الظاهر على الباطل فلن يقوم بذلك إلا جيل قرآنى فريد تحت شعار «لا إله إلا الله» بوصفه منهج حياة. فكر يعبر عن نفسية السجين المعذب. ومازال يعبر عن نفسية جميع الإخوان والحركات الإسلامية طالما أنها مازالت غير شرعية تعمل تحت سيف قرار الحل، ومهددة بالقبض على أعضائها فى أى لحظة، واتهامهم بالقيام بنشاط سياسى غير شرعى. يجتمعون ويناقشون ويقررون ماذا يفعلون فى الانتخابات القادمة أى يتآمرون على نظام الحكم مما يهدد أمن البلاد وسلامة الوطن. ويخرج التائبون من السجون، ويدخل السياسيون إليها على التبادل.

كانت هناك فرصة قبل قرار الحل للتعددية الفكرية داخل جماعة الإخوان المسلمين وتكوين أجنحة فيها بين يسار ويمين ووسط. فراح اليسار ضحية تعذيب سيد قطب، واستشهاد السيد فايز. وتحول الوسط إلى يمين داخل السجون ممثلا فى جماعات التكفير والهجرة، واغتيال الشيخ الذهبى. ثم عاد الوسط من جديد للظهور تحت تأثير المشاركة السياسية حتى ولو كانت تحت قرار الحل. وقبل الإخوان فى مصر النظام الحزبى أسوة بالأردن وبالحركات الإسلامية فى المغرب والجزائر والكويت ولبنان. وأثنى الجميع على اعتدالهم وتوسطهم. وأعطيت لهم شهادة حسن سير وسلوك بعد أن كانوا موضع اتهام بالعنف والتفجيرات والاغتيالات ومحاولات الاستيلاء على الحكم بالقوة. بل وتأسست من داخلهم محاولة لإنشاء «حزب الوسط» تأكيدا على هذا الاعتدال. ومازال الشوط بعيدا من أجل تأسيس جناح يسارى داخل الحركة يمثل اليسار الإسلامى استئنافا لسيد قطب صاحب «العدالة الاجتماعية فى الإسلام» و«معركة الإسلام والرأسمالية» قبل «معالم فى الطريق».

ليس من المعقول أن تكون أكبر دولة إسلامية عربية وهى مصر خالية من التنظيمات السياسية الإسلامية. وقد سبقتها فى ذلك الأردن والمغرب واليمن والكويت ولبنان. بل إن «حزب الله» فى لبنان هو الذى حرر الجنوب، وأطلق سراح المسجونين السياسيين باسم الدولة. وحزب «العدالة والتنمية» الإسلامى هو الحاكم فى المغرب، وحزب «العدالة والتنمية» الإسلامى هو الحاكم أيضا فى تركيا، شاقا طريقا جديدا بين العلمانيين والأصوليين بوعى سياسى فريد قادر على الصمود أمام الغزو الأمريكى للعراق اعتمادا على تصويت البرلمان، ومبتعدا عن إسرائيل ومقتربا من العرب، ومنسقا مع إيران. بل إن الحركة الوطنية فى مصر هى منبت الحركة الإسلامية ممثلة فى

الإصلاح الدينى عند الأفغانى الذى فجرت تعاليمه الثورة العرابية. وتلميذه محمد عبده هو محرر برنامج الحزب الوطنى، وتلميذه سعد زغلول هو قائد ثورة عام ١٩١٩م. وجهادهم فى فلسطين مشهود فى عام ١٩٤٨م، وفى قناة السويس ضد قوات الاحتلال البريطانى فى عام ١٩٥١م معروف. وهم أحد الروافد الفكرية للضباط الأحرار. ونضالهم من أجل الديموقراطية فى مصر منذ أحداث عام ١٩٥٤م، وخروجهم من السجن مع الشيوعيين للدفاع عن بورسعيد فى عام ١٩٥٦م، وخروجهم فى مظاهرات مارس عام ١٩٦٨م درءا لروح الهزيمة، وتنشيطهم للحياة السياسية وقياداتهم لمظاهرات الطلاب ضد العدوان الأمريكى على العراق فى يناير عام ١٩٩١م ثم فى عام ١٩٩٨م حتى العدوان الأخير فى مارس عام ٢٠٠٣م. كل ذلك تقدره مصر لهم. فلولاهم لكان الشارع المصرى أثرا بعد عين باستثناء انتفاضة يناير عام ١٩٧٧م التى قادها الناصريون واليساريون.

ليس من المعقول أن يكون للناصريين واليساريين والقوميين حزبهم العلنى، ولليبراليين حزبهم الشرعى، وللشيوعيين حزبهم نصف العلنى، ولا يكون للإخوان تنظيم شرعى، جماعة أو حزبا بدعوى عدم سماح الدستور بقيام أحزاب على أساس دينى. وجماعة الإخوان ليست حزبًا سياسيًا بل هو تنظيم أهلى. وحزب الوسط تحت التأسيس ليس حزبا إسلاميا بل هو حزب سياسى يأخذ الإسلام إطارا سياسيا له فى برنامجه ورؤيته. ليس من المعقول أن فى مصر اثنى عشر حزبا. معظمها على الورق. ولا وجود لها فى الشارع السياسى. ولا تمثل إلا أصحابها الذين يقدم البعض منهم إلى القضاء بتهمة الفساد. بل وأصبحوا موضوعا للتندر والسخرية. وليس لأكبر حركة شعبية لها وجود فى الشارع السياسى، كتنظيم سياسى شرعى. وتحاول الدولة إنشاء أحزاب ورقية كل يوم لملء الفراغ السياسى، مرة حزب المستقبل قبل أن يتم اغتيال أحد دعاته، ومرة حزب مصر أمُّنا، مجرد فقاعة فى الهواء.

إن الذى يتحكم فى حركة الشارع السياسى هم الإسلاميون والليبراليون والناصريون والمستقلون والماركسيون طبقا للترتيب والأولوية والحضور الجماهيرى. وكل حزب يتطور فى بيئة شرعية وبطريقة طبيعية بصرف النظر عن التقييد العام للمعارضة السياسة كلها على اختلاف طوائفها. فالهامش الصغير لحرية التعبير مفخرة للنظام وسط النظم السياسية المجاورة. «والأعور فى سوق العمى مفتح».

إن الذى يحمى الحياة السياسية فى مصر هو جعل مؤسساتها الدستورية وأحزابها السياسية ونظمها البرلمانية مطابقة لحركة الشارع السياسى والتعددية السياسية فيه. وهى القوى الإسلامية والليبرالية والناصرية والمستقلة والماركسية. ويستطيع الإسلاميون مع الليبراليين تكوين أغلبية نسبية فى جبهة عريضة مع باقى القوى السياسية، الناصرية والمستقلة والماركسية، تدعيما للتعددية السياسية مع الاتفاق على برنامج عمل وطنى موحد من أجل تحرير الأرض المحتلة فى فلسطين والعراق وأفغانستان وكشمير والشيشان، وتحرير المواطن من كل ألوان القهر والخوف والتسلط والطغيان، وتذويب الفوارق بين الطبقات بدلا من هذا التفاوت الشديد بين الأغنياء والفقراء، ووحدة الأمة ضد مخاطر التجزئة وتحويل الأمة إلى فسيفساء عرقى وطائفى، عرب وأكراد وتركمان وبربر، شيعة وسنة ومسلمون وأقباط حتى تأخذ إسرائيل شرعية سياسية جديدة من طبيعة الجغرافيا السياسية المحلية وليس من أساطير المعاد والاختيار والوعد، والتنمية المستقلة بدلا من الاعتماد على الخارج، والدفاع عن الهوية ضد التغريب، وحشد الجماهير ضد الفتور واللامبالاة.

دون هذا التحرك السياسى فى مصر وإعطاء نموذج للتحول الديموقراطى من الداخل يبقى النموذج الأمريكى ماثلا أمام الأذهان، العصا أو الجزرة، العراق أو ليبيا، كرها أم طوعا. إن وقوف العرب محلك سر فى مواقف الانتظار سيفقدهم إلى الأبد زمام المبادرة التاريخية فى حين يتحرك الكل وأولهم إسرائيل لتخطيط مستقبل العالم وتحديد مساره. البداية بالداخل وليس الخارج. وإعادة ترتيب البيت من الداخل يسبق المناداة بتغيير نظام العالم الذى لا يتحكم العرب فيه. والحوار مع الذات يسبق الحوار مع الغير. والصدق مع النفس أولى من الحفاظ على كراسى الحكم أو السعى إليها. وإصلاح مسار التاريخ من قرار حل جماعة الإخوان فى مارس عام ١٩٥٤ إلى احتلال أمريكا للعراق فى مارس عام ٢٠٠٣ لهو البداية لعودة العرب لأخذ مصيرهم بأيديهم وشق مسارهم التاريخى حتى فى أحلك اللحظات.

***

٤- تطبيق الشريعة ووحدة الأوطان(*)

نظرا لاتساع رقعة العالم الإسلامى وتمدده من البؤرة فى شبه الجزيرة العربية إلى الأطراف فى أفريقيا وآسيا، ونظرا لتوقف المد الأول بعد أن انتشر الإسلام فى الفتوحات الأولى، وبرد الدافع الحيوى، واستمر فى الانتشار على وتيرة أبطأ وبحركته الذاتية بدأت التعددية الثقافية فى الانتشار أيضًا بين الشمال والجنوب أو بين الشرق والغرب فنشأت دول فى أفريقيا أتاها الإسلام من الشمال فأصبح شمالها مسلمين وجنوبها أفارقة أو مسيحيين مثل السودان وتشاد ومالى ونيجيريا وبلاد أخرى فى أفريقيا الوسطى أو أفريقيا جنوبى الصحراء. ونشأت دول أخرى أتاها المسلمون من الجنوب فأصبح جنوبها مسلمين وشمالها آسيويين ذوى ثقافات آسيوية، هندوكية أو بوذية أو كونفوشيوسية مثل ماليزيا وإندونيسيا، والمسلمون فيها أغلبية. والفلبين وبلدان الهند الصينية، بورما وتايلاند، والمسلمون فيها أقلية. وبعض البلدان أتاها الإسلام من الغرب مثل إقليم سنكيانج غربى الصين أغلبيته مسلمون، والأقلية بوذية أو كونفوشيوسية. وبلدان أخرى أتاها الإسلام من الشرق مثل جنوب أفريقيا حول دوربان وكيب تاون، والمسلمون فيها أقلية، والأغلبية أفريقية مسيحية. وفى بعض البلدان الأخرى أتاها الإسلام من الشرق مثل دول البلقان وأوروبا الشرقية. تحول فيها الإسلام إلى قومية مثل باقى القوميات الصربية والكرواتية. ثم انتشر الإسلام فى القارات الثلاث إما بفعل الهجرات فى أوروبا وأمريكا وأستراليا وإما بفعل تحول سكانها إلى الإسلام على اختلاف أجناسهم وألوانهم. فنشأت أقليات إسلامية تتمسك بشعائر دينها مثل الحجاب. فيقع توتر بين الهوية الإسلامية المحافظة للأقليات والهوية العلمانية الحديثة للأغلبية. فتقع بعض الفتن مثل فتنة الحجاب الأخيرة فى فرنسا بعد

(*) جريدة الاتحاد: ١٣ مارس ٢٠٠٤، جريدة الزمان: ٩ مارس ٢٠٠٤م.

تصارع الهويتين والشرعيتين، وكلاهما صحيح. ويصبح الأمر أكثر خطورة عندما تتحول الهوية الدينية والثقافية إلى كيانات سياسية تهدد بتمزيق الدول إلى شمال وجنوب أو إلى شرق وغرب.

ويصبح الأمر أكثر خطورة فى الدول الأفريقية التى فيها المسلمون أكثرية فى الشمال، أقلية فى الجنوب عندما تظهر دعوات تطبيق الشريعة الإسلامية حتى ولو كانت النتيجة تهديد وحدة الأوطان. ووحدة الأوطان طبقا لفقه الأولويات مقدمة على تطبيق الشريعة. فالدعوة إلى تطبيق الشريعة فى مثل هذه الحالة إنما يعطى الأولوية لتطبيق الشريعة على وحدة الأوطان مما يسبب الأضرار أكثر مما يحقق المنافع، أضرار الانفصال وتمزيق الوطن. وتطبيق الشريعة لا يكون إلا فى وطن متجانس فى الهوية والثقافة حتى لا يحدث تصادم بين الشريعة للمسلمين والقوانين المدنية لمجموع المواطنين وبخاصة فيما يتعلق بقانون الأحوال المدنية والحريات الشخصية. وغالبا ما تظهر هذه الدعوات لتطبيق الشريعة فى مثل هذه الأحوال صراعا على السلطة السياسية أو حفاظا عليها من الانقلاب عليها، استئثارا بها دون مشاركة غير المسلمين، وهو أحد مظاهر التسلط باسم الشريعة، والقهر باسم الدين، وكما يحدث فى باقى البلدان الإسلامية التى كلها مسلمون. ويُدعّم أعداء المسلمين والراغبين فى تجزئة الأمة وفصل المسلمين عن محيطهم الطبيعى ووضعهم فى جيتو إسلامى هذه الدعوة حتى يسهل التبشير بدين آخر باسم الدفاع عن حرية المواطنين وحقوق الإنسان ومقاومة القهر والتسلط. فيُساء إلى الإسلام كما تسىء إليه دعوات تطبيق الشريعة الإسلامية فى البلاد الإسلامية حين يكون القصد منها التخويف والردع وإيقاف الحراك الاجتماعى، وتكفير الخصوم السياسيين. بل إن الدعوات إلى تطبيق الشريعة الإسلامية تظل قائمة حتى ولو أدت إلى حروب أهلية بين الشمال والجنوب، وسقوط المئات من الضحايا والشهداء. فتخرق الشريعة الإسلامية لعدم الحفاظ على الحياة. وإن خطأ المسلمين فى عزلتهم وانفصالهم تحت دعاوى الفقه القديمة، والتمييز بين دار الإيمان ودار الكفر، ودار الإسلام ودار الحرب، تضحية بالمواطنة، وعزل للإسلام فى حدود المسلمين، مع أنه قيمة عامة للمسلمين وغير المسلمين. وقد قسمت إنجلترا الهند إلى دولتين هندية وإسلامية من أجل حصار الإسلام داخل الحدود، وعدم إكمال انتشاره فى شبه القارة الهندية. وأقام الحكم العنصرى فى جنوب أفريقيا سياسته على الانفصال والعزلة بين

الطوائف لحصار كل منها داخل حدوده الثقافية والعرقية والدينية. وهو ما تفعله إسرائيل اليوم ببناء الجدار العنصرى العازل. فالإسلام كالسمك فى الماء، لا يمكن إخراجه أو عزله عن محيط أوسع يتحرك فيه.

ولما كان الإسلام حاملا للتعريب فإن خطأ المسلمين أيضا هو عدم حملهم لواء التعريب فى جنوب البلدان الأفريقية. فاللغة وعاء للثقافة. إن العروبة ليست شرط وجود بل هى شرط كمال. والمسلمون فى آسيا فى تركيا وإيران وماليزيا وإندونيسيا والهند وأواسط آسيا يتبركون بالعروبة قدر إيمانهم بالإسلام. والعربية لغة الأشراف، لغة العلم، ولغة النسب والقرابة.

بل إن المسلمين هم المسئولون عن عدم تنمية الجنوب وحسبان غير المسلمين فيه من الأغيار. ومصالح الناس يكفلها الشرع لكل من يعيش فى كنف الإسلام فى جواره أو فى حماه. وليس النموذج هو اقتسام السلطة واقتسام الثورة. فهذه نظرة تجزيئية تقوم على قسمة طائفية وعرقية بل بيت المال للكل بصرف النظر عن الانتماء الطائفى والعرقى. وكل من يعيش فى كنف المسلمين له حق فى بيت مال المسلمين.

وتطبيق الشريعة الإسلامية ولا شك أحد مظاهر الهوية الإسلامية. وفى البلدان التى غالبيتها مسلمون مثل ماليزيا وإندونيسيا. فلا إشكال هناك فى تطبيق الشريعة الإسلامية على المسلمين دون غير المسلمين الذين يحفظ الإسلام لهم هوياتهم وشرائعهم ولغاتهم وعاداتهم وتقاليدهم. بل إن المسلم إذا أراق خمر الكتابى فعليه الدية والتعويض طبقا لحديث «من آذى ذميا فقد آذانى». أما فى البلدان التى يكون فيها المسلمون أقلية فإن عليهم طاعة قوانين البلاد. فهم مواطنون قبل أن يكونوا مسلمين. والشريعة أيضا مقاصد وليست فقط شعائر. وهو حال المسلمين فى أوروبا. فلا خلاف بين القانون المدنى الحديث فى معظم الأحوال وبين مقاصد الشريعة، ووضع الشريعة ابتداء للحفاظ على الضروريات الخمس، النفس أى الحياة، والعقل أى العلم، والدين أى القيمة المطلقة التى يتساوى أمامها الجميع، والعرض أى الكرامة وحقوق الإنسان، والمال أى الثروة الوطنية وليس فقط المال الشخصى. وحسن معاملة المسلم للآخرين عن طريق الاندماج معه دون الذوبان فيه قد يساعد على نشر الإسلام بالعمل وليس بالقول، وبحسن المعاشرة وليس بالعنف أو المفاصلة.

لا يعنى تطبيق الشريعة الإسلامية فقط تطبيق الحدود. فالحدود لا تأتى إلا فى النهاية وليست فى البداية. وإعطاء الناس حقوقهم يسبق مطالبتهم بواجباتهم. ولكل مسلم أو غير مسلم يعيش فى كنف الإسلام حقه من بيت المال، فى الغذاء ضد الجوع، والكساء ضد العرى، والإيواء ضد العراء، والعلاج ضد المرض، والعمل ضد البطالة، والتعليم ضد الجهل، والأمن ضد العدوان. فإذا ما تم تحقيق الحاجات الأساسية للناس ثم اعتدى بعضهم على بعض، هنا تأتى الحدود للتذكير بالواجبات بعد إعطاء الحقوق، وللتنبيه على النقص فى الحقوق الذى دفع الناس إلى الإخلال بالواجبات. ومع ذلك فالإسلام جاء هداية لا جباية، ووعدًا لا وعيدًا، وكما أوصى الرسول «ادرءوا الحدود بالشبهات». ولا يطبق الحد إلا إذا توافر الشرط وغاب المانع. والحكم يدور مع العلة وجودا وعدما. إذا حضرت العلة حضر الحكم، وإذا غابت العلة غاب الحكم.

إن أهل الكتاب جزء من الأمة، وفى ذمة المسلمين. حمايتهم والدفاع عنهم أمانة فى عنق المسلمين. لهم الحق فى المحافظة على لغاتهم وثقافاتهم وعاداتهم وتقاليدهم ودياناتهم وشرائعهم كما نصت على ذلك صحيفة المدينة، والصحيفة العمرية وعهدته إلى أهل إيلياء. وليس أهل الكتاب فقط هم النصارى واليهود بل هم كل الطوائف والديانات. فعندما سُئل الرسول عن المجوس أجاب بمعاملتهم مثل أهل الكتاب. وأضاف الفقهاء الصابئة والبراهمة. بل وألحق بهم القاضى عبد البر عبدة الأوثان مادامت الطوائف كلها تعيش فيما بينها فى سلام ووئام دون عدوان أحدها على الآخر. والله ـ تعالى ـ هو المطلع على القلوب. وهو الذى يحاسب الناس يوم القيامة. أما فى الدنيا فليس لنا إلا العمل الصالح وحسن المعاملة والتراحم والإخوة بين الناس.

والشريعة واحدة، فى التوراة والإنجيل والقرآن. وتعدد والشرائع صياغات متعددة لنفس المقاصد. ولا فرق بين صحف إبراهيم وموسى، والوصايا العشر لموسى، والموعظة على الجبل لعيسى، ووصايا لقمان لابنه كما رواها القرآن الكريم.

إن تطبيق الشريعة على غير المسلمين تكليف ما لا يطاق. والدعوة إليه فى بلدان متعددة الثقافات والديانات والأعراق مزايدة فى الإيمان، وتكبر على رقاب الناس بدعوى كمال الشريعة وختم النبوة. شريعة من قبلنا جزء من الشريعة الإسلامية. والاستصلاح والاستحسان والاستصحاب والبراءة الأصلية والتحسين والتقبيح

العقليان طرق حرة للاستدلال يمكن الاهتداء بها فى التشريع. واعتراضات بعض الناس على بعض أوجه التشريع لسوء فهمها تؤخذ بعين الاعتبار من أجل التمييز بين الشريعة والفقه، والثوابت والمتغيرات، ومقاصد الشريعة وصياغاتها ووسائل تنفيذها فى الزمان والمكان.

إن مسئولية الإسلام السياسى الحديث إعادة الإسلام إلى العالم من أوسع الأبواب بعيدا عن منطق التخويف والردع والتسلط والقهر باسم تطبيق الشريعة الإسلامية من المسلمين على المسلمين أو من المسلمين على غير المسلمين. لقد أفتى القدماء أنه لا يجوز تطبيق الشريعة الإسلامية إلا بوجود الإمام أى بوجود السلطة السياسية القادرة على تطبيق الحدود. وهو رأى تسلطى، يرهن تطبيق الشريعة بالسلطة، وليس بتحقيق مصالح الناس. وقد كان بعض أهل الذمة فى الأندلس يذهبون إلى القضاء الإسلامى للحكم بينهم لأنه قائم على العدل والإنصاف والنزاهة. والعدل هو أساس الحكم فى السياسة وفى القضاء. وقد كان للخلفاء وزراء من غير المسلمين ليس فقط فى وزارات التنفيذ بل أيضا فى وزارات التفويض. فالشريعة الإسلامية شريعة وضعية كما وصفها الشاطبى فى «الموافقات»، تقوم على رعاية المصالح العامة، وراسخة فيها. ونحن نصف القانون المدنى بأنه قانون وضعى أى من وضع البشر مع أن البشر أهواء وطبقات وإرادات متصارعة. يفرض فيها القوى إرادته وقانونه على الضعيف. وتفرض فيها الأغلبية قوانينها على الأقلية باسم الديموقراطية الكمية.

إن فتح باب الاجتهاد على مصراعيه رد فعل على التشبث بالتقليد، والخلط بين الثوابت والمتغيرات، وإصلاح للبيت من الداخل قبل أن يُفرض علينا من الخارج. وهو تفكير بصوت مسموع بدلا من الهمسات والوشايات والحرج حتى لا تضيق الصدور. وقد يساعد ذلك على درء تهمة غياب الفكر النقدى عند المسلمين، وعدم قدرتهم على دخول عصر الحداثة. وإلا انبهرت النخبة بالقانون المدنى الغربى مما يسبب رد فعل الأغلبية للتمسك بالتقليد دفاعا عن الهوية ورفضا للتغريب. فتشق الثقافة الوطنية شقان. وقد يتقاتل الإخوة الأعداء ويتبادلان الاتهام بالتكفير والتخوين. والوطن هو الخاسر. وماذا تفيد دعوات تطبيق الشريعة الإسلامية فى مثل هذه الحالات إذا ما هددت وحدة الأوطان؟

٥- الإسلام فى الداخل(*)

فى هذا العالم الذى تكون فيه المعلومات المصدر الأول للقوة، وبالتالى الخطوة الأولى نحو تحقيق الهدف، وفى هذا العصر الذى لا يفكر أحد بمفرده بل تفكر مجموعات عمل كفريق، وبالرغم من كثرة الاجتهادات والرؤى الفردية، فإنه تنقصه حلقات بحث أى ورشات عمل فى أهم الموضوعات التى تعرض له فى الداخل والخارج كى تقدم دراسات متخصصة لأصحاب القرار السياسى حتى يصدر عن علم ومعرفة، ويصبح قرارا رشيدا وليس قرارا فرديا يقوم على الأهواء أو المصالح الجزئية الضيقة كما يحدث فى معظم مراكز الأبحاث فى الشرق والغرب على السواء.

وهناك جدولان للأعمال، وبرنامجان لحلقات البحث الجماعية حول الإسلام. الأول الإسلام فى الداخل لإعادة ترتيب البيت وإعداد النفس أولا قبل مواجهة العالم الخارجى. والثانى الإسلام فى الخارج صورة الإسلام فى الخارج ووضعه فى الموازين الدولية.

ويتحدد جدول الأعمال فى الداخل بتحديات سبعة تواجه الأمة الإسلامية. وهى التى بسببها يشرّع الآخرون العدوان عليها. تجعلها مجرّحة ومشوّهة الصورة.

وأول هذه التحديات هو استكمال تحرير الأرض فى فلسطين وكشمير والشيشان وأفغانستان وسبتة ومليلية فى المغرب وأخيرا العراق. ويتضمن ذلك أيضا إخلاء أراضى الأمة من القواعد العسكرية الأجنبية، وحل نظمها السياسية من الأحلاف العسكرية المباشرة أو غير المباشرة. فاحتلال أراضى المسلمين استمرار للغزوات الاستعمارية الحديثة على الأمة، القديمة والجديدة، بعد تقطيع أوصال الدولة العثمانية بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى، وتقسيم ممتلكاتها بين بريطانيا وفرنسا فى اتفاقية

(*) جريدة الاتحاد: ٥ يوليو ٢٠٠٢م.

سايكس - بيكو الشهيرة، ثم خديعة بريطانيا للعرب، تأييدهم لها فى الحرب فى مقابل الاستقلال، وتكوين تنظيم إقليمى عربى جديد يجمعهم، ويحفظ وحدتهم واستقلالهم. ولم يستطع العرب تحقيق استقلالهم إلا بالنضال المسلح حتى النصر أو المفاوضات السياسية بعد الصراع المسلح. كيف تستطيع الأمة أن تصوغ ثقافة للمقاومة، وفلسفة للتحرير، وتعيد بناء علومها القديمة انطلاقا من هذا التحدى الجديد؟ نعم، إبراز مفهوم الأرض فى القرآن الكريم ﴿**لله ما في السَّموات وما في الأرْض**﴾ [البقرة: ٢٨٤]، ﴿**ربُّ السَّموات والأرْض**﴾ [الكهف: ١٤]، ﴿**وهُو الَّذي في السَّماء إلهٌ وفي الأرْض إلهٌ**﴾ [الزخرف: ٨٤]، وإبراز فقه الأحناف بعدم جواز الصلاة فى الأرض المغصوبة. بل يمكن أيضًا إعادة توظيف «وحدة الوجود» عند الصوفية حتى يعود للإيمان بالله فاعليته فى الأرض، وبخاصة وأن العدو الصهيونى قد نشر فى كل أقسام الديانات فى الجامعات ما سماه «لاهوت الأرض»، أن الله أعطى هذه الأرض، فلسطين، وهذه المدينة، القدس، وهذا المعبد، هيكل سليمان، لهذا الشعب، بنى إسرائيل، بناء على عهد وميثاق يحصلون به على أرض المعاد. ويقولون للمسلمين: إن الأرض ليست مهمة لكم، وليست جزءا من عقيدتكم. فهى فانية ﴿**كُلُّ مَنْ عليْها فانٍ ﴿٢٦﴾ ويَبْقَى وَجْهُ ربِّكَ ذُو الْجَلال والإكْرام**﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] وهالكة ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هالكٌ إلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص: ٨٨]. فماذا يفعل مفكرو اليوم؟

والثانى تحرير المواطن. ويسبق تحرير الأرض لأن حرية الوطن لها الأولوية على حرية المواطن. ويستطيع كل المواطنين بصرف النظر عن درجة مواطنتهم الدفاع عن حرية الأوطان. العام يسبق الخاص. والأرض تأتى قبل الفرد. والفرد حر بفعل الخلق. اختار بحرية الإيمان على الكفر. ويعلن بالشهادة، الركن الأول فى الإسلام، عن هذه الحرية. فالشهادة «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله» إعلان حرية. أشهد أى أرى وأسمع وأبصر وأتكلم. والشهادة والشهيد من نفس المادة «شهد». ومن يشهد على ما يحدث فى عالمه من مظالم وآثام ويعلن عن ذلك باللسان قد يسقط شهيدا، وينال الشهادة الثانية بعد الشهادة الأولى. ثم يقوم بفعلين من أفعال الشعور: فعل نفى «لا إله» وفعل إثبات «إلا الله». فعل النفى ضد آلهة العصر المزيفة: السلطة، الجاه، المال، الشهرة، الجنس، القوة، وكل ما يدفع الإنسان فى الأعماق إلى

الحركة والنشاط. فإذا ما تحرر الإنسان منها يأتى فعل الإثبات «إلا الله»، الواحد الحق الذى يتساوى أمامه الجميع. ثم يعلن أنه ينتسب لخاتم الرسالات التى انتهى إليها الوحى بعد تطور طويل. فالإنسان أصبح قادرا بعقله على الفهم، وبإرادته الحرة على الفعل، وبالتالى اكتمل الوحى باكتمال الشعور، واستقلال العقل وحرية الإرادة.

والثالث، العدالة الاجتماعية، وتوزيع دخل الأمة على الجميع بما يحقق أكبر قدر ممكن من العدالة والمساواة. إن أغنى أغنياء العالم منا، وأفقر فقراء العالم فينا. البعض يموت بطنة، والبعض الآخر يموت جوعا وقحطا. وهى أمة متكاملة بطبعها. الثروات المادية فى جانب، والثروات البشرية فى جانب آخر، والأراضى الزراعية الشاسعة فى جانب ثالث. فكيف تستطيع الأمة أن تحقق هذا التكامل بالفعل حتى يعم الرخاء على الجميع؟ هكذا كتب عمر إلى عامل مصر عام الرمادة «الغوث، الغوث! النجاة، النجاة». ودائع المسلمين وثرواتهم فى المصارف الأجنبية لتنمية الدول الأجنبية. والمعونات إلى الدول الفقيرة تأتى من أموال المسلمين المودعة فى الخارج. وتضع المصارف الدولية شروطها من أجل إذلال الفقير، ورفع دعم المواد الغذائية عنه، ومن أجل تشجيع القطاع الخاص. ويسىء بعض فقهاء السلطان تأويل آيات التجارة والربح للترويج إلى الرأسمالية بوصفها نظامًا سياسيّا. ويسىء آخرون تأويل آية ﴿ **وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ** ﴾ [الزخرف: ٣٢] على أنها طبقات اجتماعية وليست طبقات فى العلم والتقوى والإيمان والعمل الصالح. كيف تستطيع الأمة بما لديها من تراث للعدالة والمساواة أن تحقق قيمها التى تمنع دوران المال بين حفنة قليلة ﴿ **كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ** ﴾ [الحشر: ٧]؟ وتسقط المجتمعات إذا شيد الأغنياء القصور، وعُطّلت الآبار ومصالح الناس ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ [الحج: ٤٥]؟ بل إن للفقراء حقّا فى أموال الأغنياء غير الزكاة. وعبادة الله تقتضى تأمين الناس من الخوف وإطعامهم من الجوع ﴿ **فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ** ﴾ [قريش: ٣، ٤].

والرابع، توحيد الأمة بعد تجزئتها منذ سقوط دولة الخلافة حتى الاستعمار الحديث وحركات التحرر الوطنى التى أدت إلى الاستقلال دون الوحدة. لم تدم أول تجربة وحدوية فى تاريخ العرب الحديث إلا ثلاث سنوات، الجمهورية العربية المتحدة بين

مصر وسوريا عام ١٩٥٨-١٩٦١ . واستطاعت اليمن المحافظة على وحدة الشمال والجنوب بالقوة العسكرية . ومازالت دولة الإمارات العربية المتحدة قائمة منذ عام ١٩٧٠ . والآن الأمة مهددة بمزيد من التجزئة والتفتيت إلى فسيفساء عرقى وطائفى ومذهبى ، سنة وشيعة وإباضية ، عرب وبربر وأكراد حتى تصبح إسرائيل أقوى دولة عرقية طائفية فى المنطقة ، تأخذ شرعية جديدة من الواقع الإقليمى الجغرافى السياسى فى المنطقة ، وليست أساطير المعاد الأولى التى عليها تأسست فى البداية «الدولة اليهودية» كما تصورها هرتزل . ومن عقيدة الأمة ، التوحيد ، تنبع ثقافة الوحدة . فالتوحيد ليس مجرد شهادة باللسان أو إيمان بالقلب بل هو فعل ينعكس فى الشخصية الإنسانية ليحقق وحدتها بين القول والعمل ، والفكر والوجدان . كما يظهر فى المجتمع لتكوين مجتمع إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء . ويتجلى أيضا فى الإنسانية الواحدة التى لا فرق فى شعوبها بين أبيض وأسود وأصفر .

والخامس ، التنمية المستقلة . فليس من المعقول أن تستورد الأمة ثلاثة أرباع احتياجاتها من الخارج . وأمة لا تطعم نفسها لا تكون مستقلة فى قرارها ، وتكون إرادتها مرتهنة بمن يصدر لها غذاءها ، ويهبها من معونة القمح الفائض للدول الغنية . ويصف القرآن الطبيعة الخضراء التى ينزل عليها الماء فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج ، وليست الطبيعة الصفراء ، الهشيم الذى تذروه الرياح . ويدعو القرآن كثيرا للتأمل فى الطبيعة التى سخرها الله للإنسان لإعمار الأرض . وليس من المعقول أيضا أن تكون كل النظريات عن التنمية المستدامة ، والنمو الاقتصادى ، وقوانين الطبيعة ، وتعمير الأرض كلها غربية . يزهو بها الغرب علينا . وينعى حضارتنا التى عَدَّت الطبيعة فانية بائدة . أتى الإنسان فيها أتى ليرحل وليس ليكد ويعمل .

والسادس الدفاع عن الهوية فى وقت تهدد فيه العولمة الخصوصيات الثقافية لصالح ثقافة العولمة من خلال القنوات الفضائية التى امتدت فوق السموات والأرض . وقد حافظت الأمة على وجودها فى التاريخ بالرغم من غزوات التتار والمغول شرقا ، والصليبيين والغرب الاستعمارى الحديث غربا من خلال ثقافاتها وتراثها . لذلك نهب تراث العراق لسرقة تاريخه للقضاء على وجوده وتحويله إلى مجرد مصدر للطاقة وسوق . ولا تستطيع الأمة أن تكون جزءا من العالم المعاصر وتتفاعل معه دون أن تؤكد

هويتها أولا . وفى آيات كثيرة وبطرق مختلفة يؤكد القرآن الهوية قبل الاختلاف ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾ [البقرة : ١٢٠] . إن وضع الأمة فى التاريخ أمة وسطًا فى قيمها وثقافتها وموقعها الجغرافى هو الذى يحفظ استقلالها ، ودون أن تميل شرقا أو غربًا . والهوية قادرة على أن تجلب الغيرية نحوها . وبدلا من أن يحدث اغتراب ، أى تحول الأنا إلى آخر وضياع الهوية ، يحدث عود إلى الذات . ويتحول الآخر إلى أنا فينبهر الآخر بحضارة الأنا وثقافته وهويته بدلا من أن ينبهر الأنا بحضارة الآخر وغيريته .

والسابع ، حشد الناس وتجنيد الجماهير . فالمسلمون خمس سكان العالم ، يفوقون المليار والربع مثل الصين . ويمتدون فى قارتى آسيا وأفريقيا . لم يستطيعوا حتى الآن تحرير فلسطين أو الشيشان أو أفغانستان أو العراق . ومازالت القدس محتلة . فى حين أن ستة ملايين من الصهاينة فى نصف فلسطين ينتصرون على العرب أكثر من مرة . المسلمون كم دون كيف ، وأعداؤهم كيف بلا كم . ومن هنا أتت ضرورة حشد الناس ، وتجنيد الجماهير . وهم حملة الأمانة على الأرض . وقد خلق الإنسان لغاية فى هذا الكون وهى أداء الأمانة وتحقيق الرسالة .

هذه هى التحديات السبعة أمام الأمة الإسلامية وجدول أعمالها فى الداخل . تقام حلقات البحث ، وتنسج البرامج الدينية والإعلامية حولها . وتلقى الخطب فى المنابر ودروس المسجد فيها . وتسجل أشرطة الدعاة فى موضوعاتها . فهى لا تقل حضورا فى وجدان الناس عن مشاهد القيامة ابتداء من عذاب القبر . ونعيم الحياة والسيادة فيها أولى . ﴿ **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٣٩] .

* * *

٦- الإسلام فى الخارج (*)

وبالإضافة إلى التحديات الرئيسية فى الداخل التى تحتاج إلى مجموعات عمل وفرق بحث للتفكير الجماعى فيها هناك تحديات أخرى فى الخارج تحتاج إلى الجهد نفسه من أجل إفساح المجال للأمة الإسلامية بالتفاعل مع الخارج، ورفع السدود المضروبة حولها. وهى أيضا سبعة:

الأول، الرد على إلصاق تهمة الإرهاب بالإسلام بوصفه حضارة وثقافة وديناً وشريعة وبالمسلمين بوصفه شعوبًا وجماعات ومنظمات وأفرادا. فألقيت الشبهات على التاريخ كله منذ تهمة انتشار الإسلام القديمة بالسيف حتى العصر الحالى دون التفرقة بين الإرهاب والمقاومة المشروعة، وإرهاب الأفراد وإرهاب الدول، والإرهاب والإرهاب المضاد، والعنف كفعل أولى والعنف كرد فعل ثانى، والعدوان والكفاح المسلح. مهمة حلقة البحث الإعلان أنه ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وأنه ﴿فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]. وهم المعتدون الذين أخرجوا الآمنين من ديارهم وأوطانهم. المقاومة للمحتل الغاصب أمر مشروع تكفله المواثيق الدولية والحقوق الإنسانية. لذلك فرق الفلاسفة بين الحرب العدوانية والحرب الدفاعية أو الحرب العادلة. الأولى غير مشروعة بينما الثانية مشروعة.

والثانى، دفع تهمة القهر والقمع والتسلط والطغيان الداخلى من أنظمة سياسية تقليدية تجعل الشعب عدوها. ويكون هذا التسلط مرة باسم الدين فى النظم الثيوقراطية، ومرة باسم الجيش فى النظم العسكرية. مرة باسم قريش، ومرة باسم الجيش. ومن ثم وجب التحول الديموقراطى وتداول السلطة بدلا من الرئيس مدى الحياة. فإن لم تتحول هذه المجتمعات من تلقاء أنفسها إلى نظم ديموقراطية تقوم على

(*) جريدة الاتحاد: ١٢ يوليو ٢٠٠٤م.

التعددية السياسية، والانتخابات الحرة، والوزارة المسئولة أمام البرلمان وحرية الصحافة فإن ذلك يتم بالقوة عن طريق العدوان الخارجي المباشر كما هو الحال في أفغانستان والعراق أو عن طريق تدبير مؤامرات داخلية باسم الليبرالية ضد النظم القمعية. كيف يمكن بيان أن هذه النظم القمعية لا شأن لها بالدين بل هي نظم تحسب على التخلف العام وبقايا عصر وسيط لم تجرفها تيارات الحداثة بعد؟ فالشورى تمنع من التسلط، وبإجماع الفقهاء «الإمامة عقد وبيعة واختيار». إنما الديموقراطية الإسلامية تقوم على مفهوم كيفي، وليس مفهوما كميا كما هو الحال في الديموقراطية الغربية، أغلبية تحكم وأقلية في المعارضة تعمل للانتخابات القادمة كي تصبح في السلطة. ويتم التشريع باسم إرادة الأغلبية ضد إرادة الأقلية. في حين أن الديموقراطية الإسلامية تأخذ المعارضة بعين الحسبان حتى ولو كان واحدا، وإلا كان الإجماع ناقصًا. و«أهل الحل والعقد» هم أهل الاختصاص والمعرفة والخبرة بالموضوع وليسوا رجال الدين أو الفقهاء. ويظل التساؤل: كيف تتم البيعة عن طريق النخبة أم الجمهور؟ وكيف يتم تحديد النخبة بالتعيين أم بالاختيار؟

والثالث، درء تهمة التخلف بوجه عام ومظاهره العمرانية في التربية والتعليم وتطبيق القانون وبناء المدن وتنظيم الحياة العامة. يغلب على التربية التلقين والحفظ، والطاعة والقبول من أجل خلق المواطن التابع لنظم الحكم. في حين أن التقدم يقتضي النقد والإبداع والقدرة على الرفض والتمرد على الواقع لتحسينه وإكماله، وتنظيم الحياة طبقا لقانون يقوم على المساواة في الحقوق والواجبات بين المواطنين. ومن مظاهر التخلف الاعتماد على الآخر وليس على الذات، وكثرة المعونات الأجنبية، وزيادة الديون الخارجية، وتهريب الأموال، ومظاهر الفساد والرشوة، والبون الشاسع بين الأغنياء والفقراء، والبطالة، والفقر، والإسكان والتأمين الصحي، والضمان الاجتماعي. كيف يستطيع الإسلام أن يواجه كل ذلك حتى تتحسن صورة مجتمعاته في الخارج؟ لقد استطاع الغرب أن يحقق الكفاية الذاتية وأن يشبع الحاجات الأساسية للمواطنين باسم الحق وليس باسم الدين. ففي الغرب إسلام بلا مسلمين، وفي الشرق مسلمون بلا إسلام كما لاحظ أحد المصلحين. متى تبدأ الهجرة المضادة، من بلاد الغرب إلى بلاد المسلمين للتعمير والبناء بدلا من الهجرة غير المنظمة وهجرة العمالة غير المتخصصة من ديار الإسلام إلى ديار غير المسلمين؟

والرابع، الدفاع عن صورة النفس ضد انتهاك حقوق الإنسان فى بلاد المسلمين، حقوق الإنسان العامة، الحق فى حرية الاعتقاد والتعبير والانتقال والحركة وتكوين الأحزاب السياسية والمشاركة فى الحياة الديموقراطية، وحق النقد والرفض وشرعية الاختلاف، وعدم الاعتقال دون تهمة، والإدانة دون جريمة. كما تنتهك حقوق المرأة فى قانون الأحوال الشخصية التقليدى فيما يتعلق بالطلاق وتعدد الزوجات والحضانة. وتنتهك حقوق الطفل بتشغيله فى المصانع والورش. وتنتهك حقوق الشيخ بتركه بلا رعاية فى بيت المسنين. ويزهو الغرب بأنه حضارة الإعلان العالمى لحقوق الإنسان. فكيف يستطيع المسلمون قبول هذا التحدى والإعلان عن حقوق الإنسان فى الإسلام؟ هى مقاصد الشريعة التى من أجلها وضعت الشريعة ابتداء كما يقول الشاطبى بالدفاع عن النفس أى حق الحياة للإنسان والحيوان والنبات وكل ذى نفس، والدفاع عن العقل أى حق العلم والمعرفة، والدفاع عن الدين أى حق الانتساب إلى قيمة عامة مطلقة لا تتغير بتغير الزمان والمكان كما هو الحال فى التصور النسبى لحقوق الإنسان فى الغرب التى تتضمن حق الشذوذ الجنسى وحق الإجهاض وحق العرى، والدفاع عن العرض أو الكرامة الإنسانية، وأخيرا الدفاع عن المال أى المال العام والثروات الوطنية ضد التبديد فى الداخل والنهب فى الخارج.

والخامس، توضيح الخلط بين الدين والدولة وعدم الفصل بينهما كما هو الحال فى التجربة الغربية. فالحكم الدينى حكم ثيوقراطى أثبت فشله فى الغرب ولابد أن يفشل فى الشرق فى السودان وإيران والسعودية والخليج وكل نظم الحكم التى تسمد شرعيتها من الدين وليس من العقد الاجتماعى. مهمة البحث العلمى أن يبين أن هذا الحكم يقوم على خطأين: الأول خطأ فى التعميم، تعميم الجزء على الكل. والثانى خطأ فى سوء الفهم، سوء فهم الإسلام وطبيعته الخالية من رجال الدين، والسلطة الدينية التى تعادل الكنيسة أو المحكمة الشرعية فى اليهودية. لقد اختار الغرب نموذج الفصل والقطيعة بين الكنيسة والدولة. واختار الشرق التناغم والانسجام والتآلف بين الاثنين مع تقسيم للعمل، القديم فى الحياة الخاصة، الأسرة والأعياد والعادات والتقاليد وفى عطلة آخر الأسبوع، والجديد فى الحياة العامة، المصنع والمتجر والطريق والسياسة العامة. واختار الإسلام طريقا ثالثا، الجديد يخرج من القديم بفعل الاجتهاد «إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها». المسيحية قراءة روحية لليهودية.

والإسلام قراءة واقعية عملية للمسيحية واليهودية، تجمع بين الشريعة فى اليهودية والمحبة فى المسيحية، ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦]. الإسلام ليس دينا بمعنى كهنوتى بل نظام حياة للفرد والجماعة يقوم على ديموقراطية الحكم فى السياسة، الشورى، وعلى المساواة والعدالة الاجتماعية فى الاقتصاد والاجتماع. يُقارن مع المذاهب السياسية الكبرى الاشتراكية والرأسمالية.

والسادس، بيان ماذا يعنى تطبيق الشريعة الإسلامية الذى أدى إلى اتهامها بالقسوة وانتهاك حقوق الإنسان، حق البدن فى الحدود، وحق الحياة فى القصاص. وكل ذلك ناتج عن الخلط بين الدين والدولة وعدم اتباع النموذج الغربى فى الفصل بينهما، وإقامة قانون وضعى يعبر عن الإرادة العامة. فلا يجوز قطع اليد أو أى عضو من أعضاء البدن أو الصلب. مهمة البحث الجماعى إثبات أن الشريعة الإسلامية شريعة وضعية كما يقول الشاطبى تقوم على المصالح العامة، وعدم جواز تكليف ما لا يطاق، وأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وأن الضرورات تبيح المحظورات إلى آخر ما هو معروف فى «علم القواعد الفقهية». والشريعة أيضا ليست فقط أحكام تكليف تقرر الواجب أو الفرض، والمحرم أو المحظور، والمندوب والمكروه والمباح بل هى أيضا أحكام وضع تقوم على وصف بنية الفعل فى الواقع السلوكى التشريعى والمادى وهى: السبب، والشرط، والمانع، والعزيمة والرخصة، والصحة والبطلان. فلا تقطع يد السارق عن جوع أو بطالة أو عوز أو عندما يكون المجتمع كله من اللصوص. كل فعل له علة. والحكم يدور مع العلة وجودا وعدما. إذا حضرت العلة حضر الحكم، وإذا غابت العلة غاب الحكم. وقد اختلفت فلسفات القانون فى القصاص بين التأييد والإلغاء. وإثبات الزنا يكاد يكون مستحيلا لصعوبة توافر أربعة شهود يرونه رؤية العين«كالمورد فى المكحلة» أى الفعل الفاضح فى الطريق العام. وهو ما تجرمه كل الشرائع. والرق انتهى تاريخيا وكان موقف الإسلام منه حسن المعاملة، تحرير الأمة الأم، تحرير من يعرف القراءة والكتابة، تحريره تكفيراً عن ذنب، وإعجابا بشجاعة أو اعترافا بفضل. وتهمة انتشاره بالسيف تغفل قوانين التاريخ والحرب بين فارس والروم، وظهور قوة جديدة بينهما تحمل قيما جديدة وتحرر الشعوب من سيطرتهما معا.

والسابع، شرح أسباب معاداة الغرب بل ومناهضة كل أشكال الحداثة، والتمسك بالقديم فى الحجاب والنقاب، والذبيحة الشرعية وعدم الاختلاط وغيرها من السلوك الشعبى الذى تختلط فيه الشريعة بالعادات والتقاليد. كل ذلك رد فعل على التغريب أى الانبهار بالغرب الذى انتشر فى العالم الإسلامى المعاصر منذ أكثر من قرنين من الزمان بعد الانفتاح على ثقافة الغرب وتقليده. كما أنه ظرف طارئ لتقوية الذات بعد الانكسارات المتتالية فى حركات الاستقلال وبناء الدول. إنما المحك فى الحضارة الإسلامية على مدى التاريخ هو الانفتاح على ثقافات الغير، اليونان والرومان غربا، وفارس والهند شرقا، تعظيما للحضارات المجاورة، وترجمة وتعليقا وشرحا وتلخيصا لأعمالها، وعرضا وتأليفا فى موضوعاتها، وإعادة التوازن لها ثم إكمالها. سقراط أحكم البشر، وأفلاطون صاحب الأيد والنور، وأرسطو هو المعلم الأول، والفارابى هو المعلم الثانى، وجالينوس فاضل المتقدمين والمتأخرين، وبطليموس الأول أما ابن الهيثم فهو الثانى. وأفضل ما عرض حكمة فارس مكملا إياها هو «الحكمة الخالدة» لمسكويه. وأفضل عرض لفلسفة وحضارة الهند «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة» للبيرونى. وفى الأندلس انتقل هذا النموذج الحضارى للغرب عبر الترجمات إلى اللاتينية مباشرة أو عبر العبرية. وكانت الحضارة الإسلامية العقلانية العلمية الإنسانية أحد مصادر تكوين الحضارة الأوروبية الحديثة.

كيف يمكن للأمة حاليا الدخول فى حوار مع الغرب لتبدد أوهامه عن الإسلام، وتقضى على الصور النمطية التى تراكمت فى وعيه الثقافى منذ نشأة الإسلام بالسيف فى البداية حتى الإرهاب فى النهاية؟ تستطيع فرق بحث مشتركة عربية أوروبية بلغات أجنبية تحقيق ذلك فى مشروعات بحثية طويلة قادرة على تصحيح التاريخ وتصفية الأذهان اعتمادا على براءة العقول.

***

٧- الأعلام الوطنية والشعارات الدينية (*)

العَلَم الوطنى مثل النشيد الوطنى رمز للأمة. يمثل وحدتها وإجماعها الوطنى. يلتف حوله الجميع، علامة للنصر. ويستشهدون لرفعه بصرف النظر عن الدين والعرق والثقافة فى المجتمعات المتعددة الملل والنحل والأعراق. وكان شعار القادة الوطنيين باستمرار «لن تنكس أعلامنا». وطالما أنشد المغنون للعلم وهو يخفق فى السماء:

أيها الخفاق فى مصر الهوى أنت رمز المجد، عنوان الهوى

يرفعه التلاميذ فى طابور الصباح ويحييونه. ويغرزه الجند فى الأراضى المحررة. رفعه ابن رباح الضرير فى حرب المسلمين. فلما قطعت يده التى تحمله أمسكه باليد الأخرى. فلما قطعت ضمه بذراعيه دون يدين. ويُرفع على دور الحكومة والمبانى الرسمية. وينكس فى أوقات الكوارث والأحزان الوطنية.

وتحرق أعلام الأعداء وتداس بالأقدام كما يحدث أحيانا فى المظاهرات العامة داخل الوطن العربى وخارجه المناهضة للاستعمار والصهيونية ضد العلمين الأمريكى والإسرائيلى. بل ويحدث ذلك داخل أمريكا نفسها من الحركات المعادية للاستعمار والعولمة والمناهضة للتفرقة العنصرية. يضعه الشاب الأمريكى الغاضب على حذائه أو على مؤخرته خاصة أثناء العدوان الأمريكى على ڤيتنام، إمعانا فى الإعلان عن رفض السياسات الأمريكية التى أصبح العلم رمزا لها. وفى السباق حول التسلح فى عصر الحرب الباردة أول إنسان روسى هبط على القمر وضع العلم الروسى إعلانا عن امتلاك روسيا له. وأول إنسان أمريكى تلاه وصل إلى القمر غرس العلم الأمريكى فى ترابه إعلانا عن امتلاك أمريكا له. فالصراع على ملكية الكون وليس فقط على الثروات.

(*) جريدة الاتحاد: ١٣ سبتمبر، جريدة الزمان: ٩ سبتمبر ٢٠٠٣م.

ويلف به الفلسطينيون شهداءهم حتى يظل الوطن فى الثرى كما كان فى القلب. كما يلف به المواطنون قادتهم وهو فى وداعهم إلى مثواهم الأخير عبر شوارع العاصمة ووسط ملايين المشيعين.

ويتكون العلم الوطنى من ألوان متعددة. فالألوان رموز ودلالات ومعان، إحالات وإيماءات وإيحاءات. وعادة ما يكون متعدد الألوان. فكل لون يعبر عن مرحلة تاريخية من مراحل الشعب. وغالبا ما يكون مثلث الألوان. فالمراحل التاريخية ثلاث: الانتقال من الماضى البغيض إلى الحاضر السعيد إلى المستقبل المديد الذى مازال يحمل أمانى الشعوب فى الحرية والاستقلال. وأشهر مثل على ذلك العلم المثلث الألوان الذى أصبح رمزا للثورة الفرنسية بل ولامتداداتها خارج فرنسا خاصة فى ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا والبلاد الواطئة. الأحمر لون الثورة، والأزرق لون السماء الصافية، والأبيض لون المحبة والسلام، الحرية والإخاء والمساواة، المبادئ الثلاثة للثورة الفرنسية وهى نفس الألوان للعلم الهولندى، إنما الفرق بين الاثنين هو الاتجاه، بالطول أم بالعرض.

وتحمل معظم الأعلام العربية ألوانا ثلاثة: الأسود والأحمر والأخضر. الأسود عصر الاستعمار البغيض، والأحمر الثورة عليه بدم الشهداء، والأخضر طبيعة الأرض والإنتاج الزراعى. وتتوزع عرضا لا طولا. وبعض الأعلام الشرقية فى كوريا واليابان تضم لونين، الأبيض والأحمر. السلام والحرب، وعناق السماء والأرض. وتؤثر بعض الأعلام لونا واحدا رئيسيا، الأزرق مثل الولايات المتحدة أو علم الاتحاد الأوروبى وهو لون السماء الزرقاء أو الأحمر مثل علم الصين وعلم روسيا لون الثورة، والأخضر مثل علم مصر قبل الثورة وعلم الجماهيرية الليبية بعد الثورة، أو الأبيض علم قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة.

وقد توضع مع الألوان رموز مثل النسر أو صقر قريش فى بعض الأعلام العربية. فإذا ما توحد قطران يوضع صقران كما هو الحال فى علم الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨-١٩٦١، وإذا ما توحد ثلاثة توضع ثلاثة صقور. وفى معظم الأعلام توجد النجوم رمزا للسماء المضىء كما هو الحال فى علم مصر قبل الثورة، ثلاثة نجوم. وقد تكون النجوم عددا للولايات التى منها تتكون الأمة مثل علم الولايات المتحدة ذى الواحد والخمسين نجمة بعدد الولايات الأمريكية، وعلم الاتحاد الأوروبى

ذى الاثنى عشر نجمة، عدد دول الاتحاد. وقد يأتى رمز الصليب كما هو الحال فى الاتحاد السويسرى أو رمز الصليب المثمن المتعدد الاتجاهات مثل العلم البريطانى. وقد يكون رمزا من الطبيعة مثل أرز لبنان فى العلم اللبنانى أو ورقة شجر كما هو الحال فى العلم الكندى. وقد يكون هلالا رمزا للشهر القمرى والسنة الهجرية فى مصر قبل الثورة وتركيا. وقد يكون المنجل والمطرقة رمزا للفلاحين والعمال كما هو الحال فى علم الاتحاد السوفييتى. ولا يوجد علم وطنى واحد يحمل صورة رئيس أو زعيم أو اسم. فالحكام فانون، والوطن خالد. وكلها تخلو من الكتابة بحروف بلغة معينة لشعار معين. فالرمز أقوى من الشعار، والعلامة الرمزية أقوى من الدلالة اللغوية. الكتابة خطاب سياسى متغير فى حين أن العلم الوطنى دليل وإشارة ثابتة. لذلك نادى بعض المصريين بإبقاء العلم الأخضر والهلال والثلاثة نجوم قبل الثورة بعدها أيضا. هكذا ظل علم الثورة الفرنسية حتى الآن يلهب خيال الناس إذا ما تعثر الحاضر. والعلم الوطنى مثل النشيد الوطنى لا يتغير. ولم يتغير «المارسيليز» منذ الثورة الفرنسية حتى الآن بالرغم مما تناوب على السياسات الفرنسية من تقلبات وأحداث. ونحن فى مصر نغير العلم والنشيد طبقا للسياسات، «للمليك اهتفوا يا أسود الحمى» قبل عام ١٩٥٢م ثم «بلادى بلادى بلادى، لك حبى وفؤادى» نشيد ثورة عام ١٩١٩م بعد عام ١٩٥٢م، ثم «الله أكبر فوق كيد المعتدى» بعد عدوان عام ١٩٦٧م، ثم «بلادى بلادى بلادى» من جديد بعد كامب ديفيد واتفاقية السلام مع الكيان الصهيونى. فالنشيد الوطنى تابع لسياسات الحكام. ومازالت الجماهيرية تعزف «الله أكبر فوق كيد المعتدى» نشيدا وطنيا.

وتبدأ المشكلة عندما يوضع على العلم الوطنى شعار دينى مباشر مكتوب بلغة، هى اللغة العربية. وقد ابتدع الأغالبة ذلك فى الأندلس عندما وضعوا على أعلامهم عبارة «لا غالب إلا الله». ولم يمنع ذلك من سقوط الأندلس، وبقاء قصر الحمراء فى غرناطة ومدينة الزهراء خارج طليطلة محفورا عليهما فى الرخام هذا الشعار. يقرؤه السياح، ويتأملون مصير الدولة الدينية التى انتهت فى الأندلس. ويعتزون بدولهم العلمانية التى تتحمل النصر والهزيمة دون أن تلقيها على عوامل أخرى دينية أو «لاهوتية».

وفى العصر الحديث، يوضع شعار «لا إله إلا الله» على أحد أعلام العرب الوطنية مع السيف مما يوحى بالدولة الدينية، المصحف والسيف، الدين والدولة، وهى

شعارات الإخوان المسلمين. وفى هذه الآونة، وبعد الاتهام بالإرهاب الموجه إلى العرب والمسلمين أليس من الأفضل جعل العَلَم شعارا للوطن؟ فإذا كان الاتهام الموجه لنا هو أن الإسلام انتشر بالسيف قديما ويحاول الانتشار بالعنف حديثا دون تفرقة بين الإرهاب والمقاومة، أليس من الأفضل استبدال الكتاب بالسيف، فالكتاب رمز العلم؟ أما ركن الإسلام الأول وهو إعلان الشهادتين فإن ذلك يتم بالقلب ويحقق وظائفه النفسية وهى ثلاثة: أولا الشهادة على العصر دون كتمها، الشهادة على الظلم والعدوان والقهر والاستبداد والفساد وذلك بفعل «أشهد». ومن سقط دون شهادته فهو شهيد. والثانية نفى جميع آلهة العصر المزيفة من شهرة وجاه ومال وثروة ومتع الدنيا والمال والبنون والنساء حتى يتحرر الإنسان منها وذلك فى فعل النفى «لا إله». والثالثة فعل الإيجاب «إلا الله» الذى يتساوى أمامه جميع البشر. فالشعار بنية إنسانية، الإنسان الحر، واجتماعية، مجتمع المساواة، ودولية فى العلاقات السلمية بين الشعوب دون سيطرة أحدها على رقاب الناس باسم القطب الأوحد أو العولمة والمنافسة وقوانين السوق.

وقد يسىء البعض الظن بالشعار ويقول إنه يؤدى وظيفة سياسية لإضفاء شرعية دينية على نظام لا شرعى سياسيا، تحكمه القبيلة والعشيرة والعائلة الملكية منذ تأسيس الدولة. والشرعية الدينية بديل عن الشرعية السياسية وأعلى منها. هى شرعية الله التى تفوق شرعية البشر. فى حين أن الشرعية لا تأتى إلا من البيعة، فالإمامة عقد وبيعة واختيار بإجماع العقلاء وفقهاء الأمة. قد يغطى الشعار الدينى مظاهر الاستبداد والقهر والفساد، ويطلب الطاعة من الناس ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وللوقوف باسم الدين والشرع ضد المعارضة السياسية لنظام الحكم والتى يسهل اتهامها بالكفر والإلحاد أو العصيان والمروق.

ومادام الدين قد دخل فى أتون الصراع السياسى فلماذا لا يستعمله الخصمان معا، نفس السلاح لتحقيق غايتين متناقضتين؟ لذلك وضع شعار «الله أكبر» على العلم العراقى أثناء العدوان العراقى الأول على إيران وطعن الثورة الإسلامية فى الخلف، والعدوان العراقى الثانى على الكويت، عدوان قطر عربى على قطر عربى آخر، ينتظر العدوان من إيران شرقا أو من إسرائيل غربا. أصبح شعار «الله أكبر» مبررا للعدوان

مرتين بل وللعدوان على شعب العراق فى الداخل. بعد أن تأله الحاكم ووحّد بينه وبين الله. وسيرفع الشعار الدينى بعد سقوط النظام. فوظيفة الشعار إعطاء الشرعية للنظام. ولما سقط النظام بقى الشعار فارغا من أى مضمون. الشعار لا يحرس نظاما ليس له مقومات شرعية من داخله. ويقوم على بيعة عامة واختيار حر من الناس. وهو دليل جديد للإعلام الخارجى على عدم صلاحية الدين لأن يكون أساسا للدولة، وبالتالى ضرورة فصل الدين عن الدولة، وتبنى نموذج الدولة العلمانية الغربية.

وخطورة ذلك أن يتوحد فى أذهان الناس وفى الرأى العام العالمى الدين بالسياسة، والإسلام بنظم القهر والتسلط باسم القومية مرة، وباسم «الحاكمية لله» مرة أخرى. ولا فرق فى الواقع بين التسلط الدينى والتسلط السياسى. فالتسلط واحد، بنية القهر، بصرف النظر عن المسوغات الشرعية، الدين أم السياسة. ويحمّل الناس الدين كل أخطاء السياسة. فيتم تشويه الدين بأيدينا. ثم بعد ذلك نقيم الندوات والمؤتمرات للدفاع عنه ضد منتقديه ومشوهيه بالكلام، والواقع نقيض القول. والرأى العام العالمى يأخذ بالأفعال لا بالأقوال.

فلماذا لا نبرّئ الدين مما ألقى عليه من تهم العنف والإرهاب ضد الآخرين، ومن قهر واستبداد ضد المواطنين؟ إن الأصلح لنا فى الداخل والخارج أن نجعل أعلامنا الوطنية رموزا على مراحلها التاريخية بالألوان أو على ثقافاتها بالرموز والأشكال. ومن الأفضل لنا أن نتحمل تبعاتنا السياسية وأخطاء قراراتنا أو صوابها دون جعل الدين مسئولا عنها. فالإنسان هو الذى يخطئ ويصيب وليس الله. وهو الذى يتحمل المسئولية السياسية وليس الدين.

إن العصر الحديث لا يتحمل حروب الأديان. فالمجتمع متعدد الأديان وإلا حارب المجتمع نفسه، ونشأت الحروب الدينية داخل كل مجتمع. وتكون ذريعة الدول الكبرى التدخل لحماية الأقليات الدينية من اضطهاد الأغلبية، اضطهاد السنة للشيعة، واضطهاد العرب للبربر والأكراد، والمسلمين للأقباط.

ويقوى ذلك تغلغل الاتجاهات الدينية المحافظة فى القوى العظمى الوحيدة فى العالم على مراكز اتخاذ القرار كما هو الحال فى الولايات المتحدة الأمريكية، واختراق البيت الأبيض والخارجية والدفاع بالمسيحية الصهيونية. وبصعود اليمين الدينى فى

الداخل والخارج، بعد أن يئس الداخل من تهميش الحركات الدينية وبعد أن استنفد الخارج كل وسائل التحديث وطرقه وانتهى إلى اللاشيء، إلى نقطة الصفر فى عصر ما بعد الحداثة.

ومن ثم يكون لإسرائيل الحق فى وضع نجمة داود على علمها، وللهندوس الحق فى وضع علامة الهندوكية، والاستعمار الجديد علامة القرصان الجمجمة والعظمتين على لون أسود. وبدل أن كانت حركات التحرر الوطنى هى أهم إنجاز لتاريخ العرب الحديث تصبح الحروب الدينية والطائفية مفروضة علينا فى الداخل والخارج، بعد أن تحولت الهوية الوطنية إلى هوية دينية. وبعد أن أصبح الإسلام مساويا لأحداث سبتمبر عام ٢٠٠١م فى الولايات المتحدة، وبجريمة الأقصر للسياح الأجانب فى مصر، وبتفجيرات بالى وجاكارتا فى إندونيسيا، فلماذا لا يبقى العلم الوطنى بألوانه ورموزه خفاقا فى السماء بدلا من أن تنكسه الشعارات الدينية التى تعطى الشرعية السياسية لنظم سياسية تقوم على القهر والفساد؟

* * *

٨- هل تقوم حركة تحرر عربى ثانية؟ (*)

بالرغم مما يبدو على الساحة العربية من يأس وقنوط، وإحساس عام بالإحباط والعجز فإن هناك بعض المؤشرات التى توحى بنهاية دورة فى تاريخ العرب وبداية أخرى. فقد بدأت الدورة الأولى فى النصف الثانى من القرن العشرين، بداية بثورات الضباط الأحرار ونهاية باحتلال كل فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وكشمير. وبدأت المقاومة العربية فى الظهور من جديد فى الأوطان المحتلة تعطى نوعا من الأمل بقرب نهاية النفق، إنهاء دورة وبداية أخرى.

بدأت الدورة الأولى بحركة تحرر عربى ضد الاستعمار فى الخارج عن طريق تجميع كل القوى الوطنية بأطيافها الإسلامية والماركسية والقومية والليبرالية كافة منذ الثلاثينيات والأربعينيات. وفيها نشأت حركة الضباط الأحرار. فقد كان الجيش هو القوة المسلحة الوحيدة القادرة على القيام بانقلاب ضد الاستعمار فى الخارج والقهر والفساد فى الداخل. وكانت الأولوية للخارج على الداخل. لذلك سهل تجميع القوى الوطنية المتنافسة على الحكم ضد المستعمر الأجنبى حتى تحقيق الاستقلال، وإقامة الدولة الوطنية المستقلة.

وتحقق ذلك بطريقتين: الأولى حرب التحرير الوطنية الشاملة فى الجزائر أو الجزئية فى ليبيا واليمن ومصر. والثانية مفاوضات الاستقلال مع العدو الخارجى بعد أن أدرك قوانين التاريخ وأن «على الاستعمار أن يأخذ عصاه ويرحل»، كما حدث فى المغرب وتونس والسودان والخليج والعراق وسوريا ولبنان والأردن. وفى كلتا الحالتين ترك الاستعمار وراءه عدة بؤر استعمارية فى أشكال جديدة مثل القواعد العسكرية مثل عدن فى اليمن أو الأحلاف السياسية مثل الخليج والعراق أو الشركات الأجنبية مثل شركة

(*) جريدة الاتحاد: ٢٢ مايو ٢٠٠٤، جريدة الزمان: ١٩ مايو ٢٠٠٤م.

قناة السويس فى مصر. واستمرت حركات التحرر الوطنى لإلغاء هذه البؤر مثل إسقاط حلف بغداد فى العراق، وإلغاء معاهدة عام ١٩٣٦م فى مصر، وتصفية القواعد الأجنبية فى بيزرت فى تونس، وطبرق فى ليبيا، وفى عدن فى جنوب اليمن.

وقامت الدولة الوطنية، حصيلة حركات التحرر، بدورها فى استرداد العزة والكرامة، وتكوين نظام عالمى جديد منذ باندونج عام ١٩٥٥م، وإنشاء حركة عدم الانحياز، والحياد الإيجابى، ومنظمة تضامن شعوب آسيا وأفريقيا. وأصبحت الدول الوطنية الجديدة تكوّن ثلاثة أرباع دول الأمم المتحدة، تصدر المواثيق الدولية من أجل الحفاظ على الحركة مثل «الإعلان العالمى لحقوق الشعوب». وقامت الدولة الوطنية بخطط للتنمية من أجل رفع مستوى المعيشة، ودعم المواد الغذائية لمحدودى الدخل، وإقامة مشروعات للإسكان والكهرباء والماء والمواصلات لإشباع الحاجات الأساسية، وتقرير مجانية التعليم للقضاء على الأمية، والإصلاح الزراعى لتحرير الفلاح، والتصنيع والتأكيد على حقوق العمال، والتزام الدولة بتخريج الخريجين، وإقامة اقتصاد وطنى مستقل يقوم على التنمية الذاتية المستدامة، وسيطرة الدولة على وسائل الإنتاج، وتكوين قطاع عام قوى يناط به التحديث.

وبعد نهاية القيادات التاريخية مثل ناصر، ونهرو، وتيتو، وسوكارنو، وسيكوتورى، ونكروما، وتنكو عبد الرحمن بدأت الدولة تتحول عن دورها الوطنى. فقد نشأت طبقة متوسطة جديدة أثْرت على حساب الثورة من الضباط والتكنوقراط. ودب الفساد فى الدولة. وانكفأت على نفسها. وانقلبت الثورة من داخلها وربما بنفس القيادات من الصف الثانى إلى ثورة مضادة. وتحول القطاع العام إلى قطاع خاص، وظهرت طبقة رجال الأعمال يقودون حركة «الخصخصة». ورفعت شعارات قطرية مثل «مصر أولا»، «الأردن أولا»، «الكويت أولا» من أجل فك الارتباط مع العروبة والإسلام والبداية بالارتماء فى أحضان الغرب ثم الولايات المتحدة الأمريكية. أصبحت الأولوية للداخل على الخارج. وأصبح عدو الأمس، الاستعمار والصهيونية، حليف اليوم. ولما بدأت حركات المعارضة فى الاشتداد، تحولت الدولة الوطنية التى قامت على دعوى الحرية إلى دولة قاهرة مستبدة فى الداخل، ولينة مع الخارج. تخشى على النظام أكثر مما تدافع عن الحرية والاستقلال. وأصبحت عبئا على الناس بعد أن كانت نصيرا لهم.

وقد خرجت حركات التحرر الوطنى الأولى من جُبّة الإصلاح وبخاصة تلك التى أسسها الأفغانى والتى قامت على أساسها الثورة العرابية. فهو الذى صاغ الإسلام فى مواجهة الاستعمار فى الخارج والقهر فى الداخل، ووضع شعار «مصر للمصريين». ومحمد عبده هو الذى حرر برنامج الحزب الوطنى، وسعد زغلول تلميذه هو الذى قاد ثورة ١٩١٩، وحسن البنا تلميذ رشيد رضا تلميذ محمد عبده هو الذى أسس أكبر حركة إسلامية فى التاريخ الحديث، حركة «الإخوان المسلمين» منذ عام ١٩٢٨م فى الشرقية، وفى الإسماعيلية حيث معسكرات الجيش الإنجليزية. وحدث نفس الشىء فى كل ساحات الوطن العربى. فقد خرج حزب الاستقلال وعلال الفاسى من الحركة الإصلاحية الوطنية السلفية فى المغرب، وانبثقت حركة التحرر الوطنى فى الجزائر من جمعية العلماء المسلمين. وكان الإسلام وعبد الناصر هما الدعامتين الرئيستين للثورة. وخرجت حركات الجهاد فى ليبيا من السنوسية وعمر المختار. وقامت الثورة اليمنية بفضل حركة علماء اليمن الأحرار.

وقادت مصر معظم حركات التحرر الوطنى العربى نظرا لدورها المركزى. فهى الشقيقة الكبرى فى التحرر والتحديث. وتجربتها التاريخية فى الحداثة أكثر امتدادا فى الزمن وعمقا فى التاريخ منذ دولة محمد على فى القرن التاسع عشر، وقيادة صلاح الدين حركة تحرر المسلمين من الاستعمار الصليبى فى العصر الوسيط الأوروبى.

كانت حركة التحرر العربى الأولى رومانسية الطابع. وكان لدى قادتها الخيال السياسى الكافى لتجنيد الجماهير بزعامة مباشرة تجب المؤسسات الدستورية. كانت نمطا خاصا للدولة والقيادة والتحديث، مازال العرب يحنون إليه كلما ضاقت بهم السبل، واشتد عليهم الخناق، ومزقتهم الخلافات، وتداعت عليهم الأعداء، وعجزت أنظمة الحكم الحالية عن الدفاع عن الأوطان، وامتهنت الكرامة، وانتهك العرض، وصاحت المرأة فى فلسطين والعراق «وامعتصماه» أى «واناصراه».

ضاعت مكتسبات الدولة الوطنية على الصعيدين الخارجى والداخلى. وتحولت إلى دولة تابعة للخارج، وقاهرة فى الداخل. استعمر العرب، ثم تحرروا، ثم عاد إليهم الاستعمار من جديد بالاحتلال المباشر التقليدى فى فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وكشمير. وقهر العرب فى الداخل من خلال نظام الحزب الواحد،

والأيديولوچية الواحدة، إسلامية محافظة أو قومية اشتراكية أو ماركسية. وعزّت الجبهة الوطنية. ووقع صدام فى معظم الدول الوطنية بين الضباط الأحرار والإخوان المسلمين بعد أن شاركوا فى اندلاع الثورة، وحاربوا فى فلسطين مع الضباط الأحرار، وجاهدوا فى حرب الفدائيين فى القناة فى عام ١٩٥١م، وشاركوا فى الدفاع عن بورسعيد فى أثناء العدوان الثلاثى على مصر فى عام ١٩٦٧م. تصارع الإخوة الأعداء على السلطة كما حدث فى أزمة مارس عام ١٩٥٤م فى مصر. ودخل الإخوان السجن. وتحت أهوال التعذيب تغير سيد قطب من «العدالة الاجتماعية فى الإسلام» و«معركة الإسلام والرأسمالية» و«السلام العالمى والإسلام» إلى «معالم فى الطريق». وبدلا من الحوار مع التيارات الفكرية، الماركسية والاشتراكية والليبرالية والقومية، كفر المجتمع، ووقع فى ثنائية لا تصالح بينها، بل يقضى أحد الطرفين على الآخر: الإسلام والجاهلية، الله والطاغوت، الإيمان والكفر، حاكمية الله وحاكمية البشر. ولن يقوم بهذا التحول من طرف إلى طرف إلا جيل قرآنى فريد تحت شعار «لا إله إلا الله». ومن داخل السجون تشكلت جماعات التطرف مثل حركات التكفير والهجرة، وجماعات الجهاد، والقطبيون.

وبعد أن تهرأت الدولة الوطنية قامت الحركة الإسلامية من جديد للثأر من الدولة «العلمانية» فى الجزائر وتونس وليبيا ومصر وسوريا والعراق والأردن والكويت واليمن على مختلف الأطياف عنفا أو لينا، حربا أم سلاما، انقلابا أو انتخابا. وتحول الإسلام إلى حركة احتجاج سياسى اجتماعى اقتصادى ثقافى ضد مظاهر تبعية الدولة للخارج، وقهرها فى الداخل، وشدة الأزمة الاقتصادية، والبون الشاسع بين الأغنياء والفقراء، وتحلل الدولة إلى طوائف لا يربطها رابط الوطن أو الأمة أو التاريخ. وانحسر المشروع، التحرر الوطنى الأول بعد أن تحول إلى مشروع مضاد.

والآن، تبدأ حركة تحرر عربى ثانية بعد عودة الاحتلال المباشر وعجز النظم السياسية عن الدفاع عن الأوطان، وضعف المعارضة السياسية لأنها تفكر بعقلية السلطة البديلة. تعيش مع الشعب بعقلية القصر. والجماهير عاجزة عن أخذ مصيرها بأيديها نظرا لمرور نصف قرن من تغييبها عن العمل السياسى. وتبدأ ظاهرة الإسلام السياسى، وعودة الحركات الإسلامية لوراثة الدولة الوطنية المتهرئة. وتساهم فى حركات التحرر الوطنى

الجديدة مع باقى الحركات الوطنية فى فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان. وتصبح هى بارقة الأمل الوحيدة فى سماء العرب المظلم كما حدث فى نصر أكتوبر عام ١٩٧٣م. قاومت الفلوجة أكبر قوة عسكرية للإمبراطورية الأمريكية الجديدة. وقاومت جنين على مدى أسبوعين الكيان الصهيونى خامس قوة عسكرية فى العالم كمّا إن لم تكن ثانيها كيفًا. والآن يقاوم المثلث الشيعى بعد المثلث السنى. وتبدع المقاومة الإسلامية فى أفغانستان والشيشان وكشمير أشكالا جديدة للمقاومة.

وقد نشأ الآن توازن فى الرعب فى بلدان قوات الاحتلال فى الغرب وبين المقاومة الإسلامية. وتغير النظام السياسى فى إسپانيا وخرجت قواتها من العراق. وتلتها قوات رمزية أخرى. كما حدث توازن فى الرعب بالرغم من اختلال توازن القوى بين المقاومة الفلسطينية والكيان الصهيونى. فلم يعد الصهيونى المستوطن يشعر بالأمان. فقد يأتيه الشهيد من أى مكان وفى أى وقت. ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. وبدأت الواقعية السياسية التى سادت العقود الثلاثة الأخيرة فى الترنح أمام ضغط المقاومة والتفاف الشعب العربى حولها بعد أن تبدد وهم السلام. فنظام العالم الجديد، والعالم ذى القطب الواحد ليس أبديّا. والعولمة ليست نهاية التاريخ. وسكون الشعب العربى لن يبقى إلى الأبد. وتهميش مصر له حدود. فمازالت هى الشقيقة الكبرى وإن كانت مكسورة الجناح، حزينة الروح، جملا باركا يجتر طعامه الذى اختزنه أثناء المسيرة. إن الوطن العربى مخصب لولادة جديدة، لحركة تحرر عربى ثانية ترث الأولى، وتقيلها من عثرتها. إذ تنتهى دورة وتبدأ دورة أخرى ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١].

***

٩- الوطن والعروبة والإسلام(*)

ثلاث دوائر متداخلة وعاها هذا الجيل الذى يكاد ينقضى سواء من الحركة الوطنية الليبرالية أو من الحركة القومية العربية أو من الحركة الإصلاحية الإسلامية. فالوطن هو البؤرة. وليس أعز على الشعوب من استقلال الأوطان. قامت الثورات باسم الاستقلال مثل ثورة عام ١٩١٩م، وكل الثورات العربية الأخيرة منذ منتصف الخمسينيات. وكان الاستقلال الاقتصادى أيضًا باسم الوطن عند طلعت حرب وعبد الناصر. لا فرق بين حركة وطنية وحركة قومية. وفى «فلسفة الثورة» تتداخل الدوائر الثلاث، مصر والعروبة والإسلام. ويشمل الإسلام مجموع شعوب آسيا وأفريقيا. وفى الحركة القومية المتجددة الإسلام ثقافة العرب، وأحد تجليات العروبة «إذا كان محمد كل العرب فكل العرب محمد».

إنما الفرق بين التيارات الفكرية الثلاثة هو البداية. ففى التيار الليبرالى، الوطن هو البداية ولكنه وطن مفتوح على دول الجوار كما كان الحال فى عصر محمد على وعبد الناصر. فحدود مصر كوطن فى الشام والسودان وشبه الجزية العربية. والإسلام ثقافتها وتاريخها. وفى التيار القومى، القومية هى البداية ولكنها قومية تقوم على تحرر الأوطان، وتعترف بخصوصيات الأقطار. والإسلام ثقافة العرب. والمسيحيون العرب نصارى دينا، ومسلمون ثقافة. وفى التيار الإسلامى، الأمة الإسلامية هى البداية. والإسلام هو الموحد بين أقطارها. والعروبة حامله الأول. والوحدة العربية خطوة نحو الوحدة الإسلامية. والوطن جزء من الإسلام. فقد قامت معظم حركات التحرر الوطنى فى الوطن العربى والعالم الإسلامى من جبة الحركات الإصلاحية الإسلامية. وحب الأوطان ركيزة للحركة الإسلامية منذ الأفغانى الذى وضع أساس

(*) جريدة الاتحاد: ٥ يونيو ٢٠٠٤م.

الحركة الوطنية فى مصر. وهو واضع شعار «مصر للمصريين». وهو الذى فجّر الثورة العرابية دفاعا عن الوطن. وخط تلميذه محمد عبده بيده برنامج الحزب الوطنى. وفى بداية «مناهج الألباب» للطهطاوى أنشودة فى حب الوطن. فحب الوطن من الإيمان. وقد ذرف الرسول دمعة حزنا على فراق مكة ليلة الهجرة. وفى المغرب العربى كله لا فرق بينها وكما جسد ذلك علال الفاسى. فالوطنى هو العربى المسلم، والعروبة هى اللسان، والإسلام ثقافة الجميع.

وكان من الطبيعى أن يعادى الغرب الاستعمارى هذه التيارات الثلاثة لأنها جميعا تقاومه. تريد الحرية للأوطان والاستقلال للشعوب. فهى التى قادت حركات التحرر الوطنى. قاد التيار الوطنى حركات التحرر فى النصف الأول من القرن العشرين. ورمزها ثورة عام ١٩١٩م فى مصر، وثورة عز الدين القسام فى عام ١٩٣٦م فى فلسطين، والحركة الوطنية السورية فى عام ١٩٤٥م، وضرب فرنسا دمشق بالقنابل، والثورة الجزائرية فى منتصف الخمسينيات.

ثم استمر التحرر الوطنى بفضل التيار القومى منذ منتصف الخمسينيات. وبلغ الذروة فى الناصرية فى الستينيات، بداية برفض الأحلاف العسكرية فى عام ١٩٥٤م مثل حلف بغداد، ثم حلف طهران فى عام ١٩٦٥م، ثم التأميم فى عام ١٩٥٦م، والتمصير فى عام ١٩٥٧م، ثم أول تجربة وحدوية عربية، الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨م-١٩٦١م، ثم قوانين يوليو الاشتراكية بعد الانفصال. ثم وقعت الواقعة فى هزيمة عام ١٩٦٧ لتعود حركة التحرر الوطنى العربى من جديد مطالبة بالانسحاب من الأراضى المحتلة طبقا لقرارات الأمم المتحدة أو بالسلاح كما حدث فى أكتوبر عام ١٩٧٣م.

وبالرغم من مشاركة التيار الإسلامى فى حركات التحرر الوطنى فى العصر الليبرالى فى النصف الأول من القرن العشرين قبل أن يستأثر به التيار القومى فى النصف الثانى منه، وإزاحة التيار الإسلامى، صراعا على السلطة بل ودفعه إلى السجون والمعتقلات وحل تنظيماته فإنه عاد من جديد منذ أوائل السبعينيات بعد انقلاب الثورة العربية على نفسها، وتحولها إلى ثورة مضادة من داخلها، وبتشجيع منها، لتنفرد بالعمل الوطنى، وتصبح قوة المعارضة الأولى، وتستولى على حركة

الشارع العربى والاسلامى. ثم تعلن النضال المسلح فى فلسطين والعراق وأفغانستان وكشمير والشيشان. وتنزل تحت الأرض فى تنظيمات سرية لتعلن أيضا مقاومة أنظمة الطغيان. وتحاور باقى التيارات الوطنية والقومية فى جبهة واحدة للنضال ضد الاستعمار الجديد الذى عاد لغزو الأوطان، ومقاومة مشروعات الشرق الأوسط الكبير والإصلاح والتى تهدف إلى القضاء على التجمعات الإقليمية مثل الوطن العربى، وتفتيت العالم الإسلامى بعد اتخاذ الإسلام عدوًا جديدًا بديلاً عن الشيوعية بعد نهاية عصر الاستقطاب، ووصفه بالإرهاب والعنف والتخلف والتسلط والقهر لتسويغ العدوان عليه فى عصر الإمبراطوريات الأمريكية والإسرائيلية الجديدة.

لذلك يشتد الضغط على هذه التيارات الفكرية السياسية الثلاثة وما تمثله من دول ونظم سياسية مثل مصر وسوريا والسعودية. فقد ساد مصر التيار الوطنى الليبرالى فى النصف الأول من القرن العشرين ومنذ ثورة عرابى فى عام ١٨٨١م، وتأسيس الحزب الوطنى وزعاماته التاريخية: مصطفى كامل، محمد فريد، سعد زغلول، مصطفى النحاس. ثم قامت الثورة المصرية بأيديولوچية وطنية لتحقيق الاستقلال الوطنى قبل أن تتحول إلى أيديولوچية قومية. وظلت الوطنية المصرية عبر التاريخ الحصن الحصين للدولة المصرية حتى ولو تمركزت حول الحاكم، فرعون، القديم أو الحديث. وباسم التحرر الوطنى قادت مصر فى الخمسينيات والستينيات حركات التحرر فى الوطن العربى، ودعمتها فى العالم الثالث كله منذ مؤتمر باندونج فى عام ١٩٥٥م، مرورا بمؤتمرات عدم الانحياز.

لذلك تتم محاولات تهميش مصر، وإخراجها من المعركة، ومحاولات كسر جناحها وإذلالها وإهانة نظامها بوعد بلفور الثانى لإسرائيل من الولايات المتحدة فى أثناء وجود رئيس مصر بها، وإعطاء الضمانات للأردن وليس لمصر بالنسبة لخارطة الطريق، والتدخل فى السياسة المصرية عن طريق تدعيم مراكز الأبحاث واقتطاع جزء من المعونة الأمريكية لأحدها. ولا تستطيع مصر، وهى التى دخلت أربع حروب من أجل فلسطين، مساعدة الانتفاضة الفلسطينية وهى فى عامها الرابع. وتصرخ الأمهات الثكلى، «واناصراه»، ويتساءل الفلسطينيون فى الخيام: أين مصر؟ بل لقد دخلت مصر مع قوات الغزو الأمريكى الأولى العراق بدعوى تحرير الكويت. ومازال العراق

محتلا بعد تحرير الكويت متنازلة عن شعارها، العربى لا يسفك الدم العربى. وقد ضحى عبد الناصر بالوحدة مع سوريا بعد الانفصال فى عام ١٩٦١م، وأرجع القوات المصرية ومازالت اللاذقية وحلب متمسكتين بالجمهورية العربية المتحدة حفاظا على الدم العربى. وهى مكبلة بالديون، وإرادتها الوطنية مشروطة بالمعونة الأجنبية والقمح بالرغم من إمكانية صنع خبز مصرى مائة فى المائة. وتقدم لها المشروعات مثل الشرق الأوسط الكبير من أجل إخراجها من قلب الوطن العربى. وهى أول من تحول من الشرق إلى الغرب فى الجمهورية الثانية. وأول من عقد صلحا مع الكيان الصهيونى قبل الانسحاب من باقى الأراضى المحتلة فى عام ١٩٦٧م. وتُهدد باستمرار بالكشف عن ملفات الفساد، وحقوق الإنسان. ومن ثم خرجت مصر عن مسارها الوطنى الطبيعى من أجل القضاء على الوطنية المصرية. وقد أدركت مصر ذلك برفضها دعوة مجموعة الثمانية التى لا تعترف إلا بالكيانات القطرية. وربما بدأت تستعيد توازنها بين الغرب والشرق.

وكما تمثل مصر الوطنية فإن سوريا تمثل القومية. ففيها اشتدت الحركة القومية. ومازالت متمسكة بها بالرغم من اشتداد القطرية، وتقطيع الأوصال، وإغراءات العولمة والهرولة نحو القطب الأوحد للتحالف معه أو حتى مع الكيان الصهيونى القادر على استثمار أفضل لأموال النفط، وتكنولوچيا أرقى لتحديث الأقطار العربية فرادى. وتكون الجسر الذى يعبر عليه العرب للغرب بدلا من هذا العداء بين العرب والغرب أو بين الإسلام والغرب. أعطت سوريا مصر القومية العربية، وتغير عبد الناصر من الوطنية إلى القومية العربية بفضلها. كان وطنه مصر، وهواه سوريا.

ومازالت سوريا تمثل آخر قلعة من قلاع القومية العربية حتى ولو على مستوى الخطاب ليذكر الناس بحلمهم القديم الجديد وبانتصاراتهم الأولى للصمود أمام الهزائم الحالية. مازالت تساعد المقاومة الفلسطينية وترفض أى مساومة على القضية. مازالت تقف صفا واحدا مع المقاومة العراقية بالرغم من الخلاف القاتل بين جناحى حزب البعث فى سوريا والعراق فى العقود الأخيرة. ومازالت فى لبنان حكما بين الصراعات الطائفية والعرقية، وعنصر توازن فى المعادلة اللبنانية. ترفض السلام مع إسرائيل بأى ثمن ودون الانسحاب من كامل الأراضى السورية.

وجزاؤها الآن التهديد بالغزو بعد العراق، وفرض العقوبات عليها، وتصنيفها الممكن فى محور الشر، وتسليح حزب الله، والجسر بين شيعة إيران وشيعة لبنان. لقد حملت الجماهير السورية عربة عبد الناصر على الأكتاف. ومازالت تستمع إلى خطابه فى دمشق دفاعًا عن القومية العربية بوصفها حركة تحرر عربى. وتهديد سوريا هو تهديد لمصر وقطع أوصالها فى الشمال حتى تنحسر مصر عن الشام، فلسطين وسوريا والأردن ولبنان. وتعود قطرا منكفئا على النيل وسيناء منزوعة السلاح. فكما يشتد الضغط والتهميش على مصر، رمز الوطنية، يشتد الضغط والتهديد على سوريا، رمز القومية العربية حتى يتم التخلص معا من جناحى الاستقلال السياسى، الوطنى والقومى، ويصبح الوطن العربى بلا قلب. فلا حرب بدون مصر ولا سلام بدون سوريا.

والتيار الفكرى السياسى الثالث الذى مازال يقاوم هو التيار الإسلامى وكما تجسده رمزا السعودية وثورة إيران، وشارعا مناضلا فى باكستان، ومقاومة فى أفغانستان وكشمير. فالسعودية فى الخيال الغربى الأمريكى هى مكان النبوة، ومهبط الوحى. بها الحرمان الشريفان فى مكة والمدينة. يأتيها المسلمون بالملايين حجا من كل فج عميق. تحكم بالإسلام، وتطبق الحدود، وتصدر الفتاوى. وبها المركز الرئيسى لمنظمة المؤتمر الإسلامى. وفى الوقت نفسه تمثل إسلامًا ليبراليًا تجاريًا منفتحًا على الغرب، وليس إسلامًا اشتراكيًا قوميًا يعتمد على التصنيع والتنمية المستقلة ومعاديا للغرب. هى زعيمة العالم الإسلامى بلا منازع، بما لها من قوة معنوية، وقوة اقتصادية، ومخزون نفطى، واستثمارات أجنبية، وأموال فائضة. الخليج كله شرقا وجنوبا يدور فى فلكها. بل إن الشام نفسه امتداد شمالى لها منذ سيكس- بيكو. وهى الطريق إلى آسيا. وتمثل أيضا ركن المحافظة ضد التغلغل الشيوعى فى العالم الإسلامى.

والآن تحول الحليف الأول لأمريكا إلى عدو لها بعد أن ظهرت جماعات العنف والتى يرمز لها أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة. وهو الذى ساهمت الولايات المتحدة الأمريكية فى صنعه كما ساهمت فى خلق الطالبان كى تضرب به الشيوعية فى أفغانستان. ومن كثرة الضغط من أعلى من النظام السياسى ورفض عمليات الإصلاح والتغير الاجتماعى بدأ التفكك من أسفل بتكوين جماعات العنف لتغيير المجتمع بالسلاح. وكلما تباطأ الإصلاح اشتد نشاط جماعات العنف.

ومع ذلك يعظم تهديد السعودية من حليف الأمس لأنها مازالت ترفض الصلح مع الكيان الصهيونى قبل الانسحاب الكامل من الأراضى المحتلة، واسترداد شعب فلسطين حقوقه المشروعة بما فى ذلك تكوين دولته المستقلة وعاصمتها القدس. مازالت تحافظ على كرامة العرب والمسلمين. وتقف صفّا واحدًا مع مصر وسوريا ليُحفظ للوطن العربى استقلاله وللعالم الإسلامى كرامته.

الوطن والعروبة والإسلام، مصر وسوريا والسعودية، تمثل اليوم قلعة الصمود فى مواجهة العدوان الأمريكى الإسرائيلى، ومشروعات الشرق الأوسط الكبير، وبرامج الإصلاح. فمهما اختلفت المعارضة الوطنية والعربية والإسلامية مع نظم الحكم فى مصر وسوريا والسعودية فإنها تقف معها فى خندق واحد، خندق الصمود فى مواجهة العدو الخارجى، الاستعمار والصهيونية.

❊ ❊ ❊

١٠- ليس حبا فى الديموقراطية (*)

كثر الحديث عن الديموقراطية أخيرا فى الداخل والخارج. وتعددت النشرات والمجلات حولها. وقامت المظاهرات للمطالبة بها. وهى أول بند فى جدول الأعمال الخارجى الذى تفرضه الولايات المتحدة فى مشروع الشرق الأوسط الكبير. فسرقت الأضواء من المثقفين الوطنيين الذين ناضلوا على مدى قرنين من الزمان دفاعا عن الحرية والديموقراطية وبخاصة فى نصف القرن الأخير بعد قيام الضباط الأحرار بثوراتهم منذ أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات. وسحبت البساط من تحت أقدامهم حتى توقفوا عن استعمال اللفظ بعد أن تحول من جدول الأعمال الوطنى إلى جدول الأعمال الأمريكى، ومن النضال الوطنى فى الداخل إلى الهيمنة الأمريكية فى الخارج، وذلك مثل كل مشروعات الإصلاح، إصلاح التعليم، وتجديد الفكر الدينى، وإصلاح مؤسسات الدولة.

وهى كلمة حق يراد بها باطل. هى مجرد ذريعة للتدخل فى حياة الشعوب وإعادة توظيف الجرح الوطنى من أجل الهيمنة الخارجية، وليس من أجل التحرر الوطنى. هو وضع للسم فى العسل، والقبض على مقدرات الشعوب بقفاز من حرير. والتجربة من الخارج تثبت ذلك مثل المعونات الأمريكية وكما اتضح فى صورة «الخواجة» فى الأدب الشعبى.

لقد جربت قوى الهيمنة الغزو العسكرى المباشر وما زالت تجرب فى فلسطين والعراق وأفغانستان. كما تجرب الغزو الاقتصادى عن طريق الشركات المتعددة الجنسيات والعولمة بدعوى الاستثمار، وإيجاد فرص للعمالة، وتوفير المنتجات الاستهلاكية، والدخول إلى الأسواق العالمية. وتجرب الغزو الإعلامى عن طريق

(*) جريدة الاتحاد: ٣١ يوليو ٢٠٠٤، جريدة الزمان: ٣١ يوليو ٢٠٠٤م.

التبشير بأسلوب الحياة الأمريكى، وبالنموذج الأمريكى، وبالرؤية الأمريكية. وأخيرا تجرب الغزو الثقافى عن طريق تبنى جدول الأعمال الوطنى وإعادة توظيفه لحسابها ولمصلحتها حتى تضع القوى الوطنية فى حرج تاريخى. إن هى رفضت الديموقراطية فنضالها من أجلها كان كاذبا. وإن هى قبلتها فإنها تعمل لصالح قوى الهيمنة، وتنفيذاً لجدول أعمالها. ومن ثم تفقد ركائزها الوطنية مادامت تعمل تحت المظلة الأمريكية.

وفى تاريخنا المعاصر كانت الولايات المتحدة أول من أيد النظم الديكتاتورية فى كل بلدان العالم الثالث، فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، عسكرية أو دينية أو مدنية، ما دامت تنفذ مصالحها وتأتمر بأمرها دون حسبان لمصالح الشعوب. تؤيدها بالسلاح والمعلومات الاستخبارية وبخبرات الأمن من أجل تطويق القوى الوطنية والقضاء عليها وتصفيتها جسديا. بل إنها تساعدها على التمادى فى التسلط حتى تصبح طيّعة لها تماما توجهها كيفما تشاء. فإذا حاولت إحدى هذه النظم الخروج على الطاعة من أجل البقاء فى الحكم مع درجة أقل من القهر فإنها تفضحه وتهدده بخرق حقوق الإنسان، وعدد المعتقلين والمعذبين فى السجون والذين تمت تصفيتهم جسديا، وكم السرقات والتحويلات الأجنبية وتهريب ثروات الشعوب فى البنوك الأجنبية، وتعاملهم مع المخابرات الأجنبية حتى تستمر الطاعة العمياء والولاء المطلق حتى تستنفد جميع الأغراض.

والأمثلة على ذلك كثيرة، الجنرال ديم فى فيتنام، ونورويجا فى أمريكا اللاتينية، والطالبان، وشاه إيران وبعض النظم العربية التى تعانى الآن من طول نظام القهر وتأخير الإصلاح حتى بدأت جماعات المعارضة تتحول إلى العنف والسلاح بعد أن هاجرت المعارضة المدنية إلى الخارج. والأمثلة فى أفريقيا كثيرة بتأييد الجنرالات ثم الانقلاب عليهم واستبدال آخرين لضمان استنزاف الثروات، والسيطرة على الشعوب.

وظهر المعيار المزدوج فى الممارسات الديموقراطية. إذ يُعَدُّ النظام الأمريكى النموذج الفريد للديموقراطية كما يقره الدستور، وإعلان الاستقلال، وحرية الصحافة، واستقلال الإعلام، ونظام المجلسين، والانتخابات الحرة، والأغلبية والأقلية، ونظام محاكمة الرؤساء وإقالتهم. أما فى الخارج فتتحول الممارسات إلى أبشع صور التسلط

والتلاعب بمصالح الشعوب وكأن الديموقراطية مصلحة، وحكر على الداخل دون الخارج، وقيمة أمريكية وليست لباقى الشعوب التى لا تستحقها. فالقيم الأمريكية قيم «براجماتية». لا تتضمن حقيقة فى ذاتها، عامة وشاملة ومطلقة. بل هى قيم مصلحية، بمقدار ما تحقق من نفع شخصى. وتنقلب إلى ضدها إذا ما حققت نفعا أقل أو سببت ضررا. فالمنفعة هى القيمة الحاكمة لكل منظومة القيم.

إن الديموقراطية الأمريكية أسطورة. مجرد شكل بلا مضمون. أغلبية وأقلية، وانتخابات فردية، ودعاية وإعلام بما لدى المرشح من إمكانات مالية، وتبرعات فردية أو من جماعات الضغط لتنفيذ مطالبها بمجرد نجاح المرشح. وتنصت الأحزاب بعضها على بعض كما هو الحال فى قضية «ووترجيت» الشهيرة. فهى ديموقراطية الإعلام والدعاية فى عصر تحول فيه الإنسان إلى بعد واحد تحت أثر الإعلام. فالحقيقة هى كيفية الإعلان عنها.

فإذا نجحت الأغلبية فإنها تفرض إرادتها على الأقلية، وتملى شروطها عليها. وإذا تحولت الأقلية إلى أغلبية، والأغلبية إلى أقلية فى الانتخابات التالية يتغير القانون. ومن ثم يضيع الأساس الموضوعى للقانون وتعبيره عن المصالح العامة لمجموع الأمة دون فرقة من فرقها طبقا لصناديق الاقتراع. وتتألف الأحزاب، وتتشكل القوى السياسية من أجل الوصول إلى الحكم عن طريق صناديق الاقتراع وليس من أجل برنامج يطبقه أو مبدإ يدافع عنه.

فالديموقراطية الغربية مقدار كمى، وليست قيمة كيفية. تشترى بعدد الأصوات وليست مبدأ عاما مستقلا عن حوامله المادية. إن الرأى قيمة فى ذاته بصرف النظر عن العدد. وكثيرا ما كان الحق يدور مع الأقلية دون الأغلبية. بل لقد بدأت الدعوات وهى أقلية قبل أن تتحول إلى أغلبية. والرأى المخالف للأغلبية له نفس القيمة لرأى الأغلبية.

وما يتحكم فى الديموقراطية الأمريكية والصهيونية هى المصلحة وراء الأغلبية والأقلية، وأيديولوچية الهيمنة والسيطرة والتوسع. فلا خلاف بين الديموقراطيين والجمهوريين فى شن الحرب والعدوان على الشعوب أفغانستان والعراق. ولا فرق بين الليكود والعمال فى احتلال فلسطين. إنما الخلاف فى الدرجة وليس فى النوع. فى

الأسلوب وليس فى الغاية، فى الإخراج وليس فى الموضوع. والأغلبية لا تصنع قيمة فى مدى الإقناع بها وابتلاعها بدلا من استخدام القوة لتنفيذها، فى مدى تجميل القبيح وتحسين صورته فى الرأى العام الدولى وأمام النفس لأن النفس تمج القبح بطبعها، وتحتاج إلى شرعية لابتلاعه والتعامل معه والرضا عنه حتى ولو كان بطريقة إيهام النفس قبل خداع الآخرين.

وقد تكون ثقافات محلية أخرى أقرب إلى روح الديموقراطية من الديموقراطية الشكلية الأمريكية. تقوم على الاستشارة، وعدم التفرد بالرأى، وسماع الرأى الآخر، والاستنارة بخبرات الآخرين، خبرة الكبار وبراءة الصغار. فالحق متعدد، والصواب منظور. وقد يتم ذلك بروح التوافق والجماعة تحت خيمة أو فوق مصطبة وليس بالضرورة تحت قبة البرلمان وداخل مبنى الكونجرس.

ويتم استشارة أهل الخبرة والاختصاص القادرين على الوصول إلى قرار فى الموضوع. صحيح أن مبدأ صوت واحد لكل فرد يوحى بالعدل والمساواة ولكنه فى الحقيقة يساوى بين رأى العالم ورأى الجاهل، الرأى الذى يعبر عن المصالح العامة والرأى الذى يدافع عن المصلحة الخاصة، الرأى الموضوعى والرأى الشخصى. وطالما عارض أهل الاختصاص ما يدور فى الديموقراطية الشكلية. ومنهم جماعات الدفاع عن المستهلكين والملونين والأقليات، وجماعات السلام الرافضة لسيطرة المجمع العسكرى الصناعى والبنتاجون وخبايا البيت الأبيض وجماعات الضغط على مصالح البلاد.

قد تكون الديموقراطية المباشرة أحد أشكال التعبير عن المصالح العامة وكما يدركها الزعيم بحسه الشعبى الوطنى كما حدث فى تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦م، و فى حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م. صحيح أننا عانينا من الزعيم بعد أن تحول إلى حاكم مطلق يغامر بمصالح البلاد فى قضايا الحرب والسلام. وهو الزعيم الذى لم يستشر أو استشار وخاف المستشارون منه، وأفتى العلماء بما يريد ويحقق رغباته. الزعماء الوطنيون يحفظ التاريخ مآثرهم. والمغامرون ينساهم التاريخ، ويمحون من الذاكرة.

إن القضاء الشعبى عن طريق التراضى بين المتخاصمين يكون أحيانا أكثر فاعلية من القضاء الرسمى عن طريق المحامين والاختلاف فى تفسير القوانين والتلاعب بالقرائن وبالشهود. وقد تكون الديموقراطية الشعبية على هذا النحو أنجح من الديموقراطية

التمثيلية التى يحصد فيها الحزب الحاكم كل الأصوات بتدخل مؤسسات الدولة والتى يحصل فيها مرشح الرئاسة الوحيد على مجموع الأصوات حتى أصبحت أغلبية ٩٩,٩٪ موضع فكاهة وتندر فى الداخل والخارج.

إن الديموقراطية مرتبطة بالثقافة وليست قيمة مستقلة عن المنظومة الثقافية. والديموقراطية الأمريكية والإسرائيلية تخضع لمنظومة ثقافتها. وهى ثقافة التفوق والعنصرية. التفوق التكنولوچى وعنصرية الرجل الأبيض أو تفوق الشعب المختار الذى يجمع بين عنصرية العرق وتفوق الطائفة. فالبروتستانت الأنجلو سكسكون البيض «الواسب» WASP هم قمة المجتمع الأمريكى. كما أن الشعب المختار وذروة الشعوب فى تراكبها القيمى، له حق استباحة الأعراض والأموال لباقى الشعوب ﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥]. فمن ليس معنا فهو ضدنا فى العقلية الأمريكية. وباقى الشعوب هم «الجونيم» فى العقلية الإسرائيلية.

إن الديموقراطية للجميع. تتطلب منظومة ثقافية تقوم على المساواة وليس التفوق، وتحقيق المصالح العامة للبشرية، وليس المغانم الخاصة لشعب معين. هى ديموقراطية الكرامة واحترام الشعوب وليس فقط ديموقراطية التمثيل والسلطة المنتخبة. هى الديموقراطية خارج ميزان القوى الدولية، ديموقراطية المبدأ المستقل عن القوة. فالمبدأ هو القوة، وليست القوة هى المبدأ.

إن السبيل إلى التحول الديموقراطى لدى شعوب العالم الثالث هو النضال الوطنى فى الداخل وليس جدول الأعمال الأجنبى المفروض من الخارج حتى لا تكون الديموقراطية كلمة حق يراد بها باطل.

وعلى النظم السياسية الآن أن تعيد بناء كيانها بناء على صوت الوطنيين المناضلين من أجل الديموقراطية فى الداخل بدلا من فرضها من الخارج من قوى الهيمنة. وإذا كان لابد من البقاء فى الحكم فالأفضل أن يتم ذلك بالبناء الديموقراطى فى الداخل لمصلحة الوطن بدلا من فرضه من الخارج لمصلحة قوى الهيمنة. «بيدى لا بيد عمرو».

***

١١- الجـذب والطـرد(*)

علاقة المركز بالأطراف علاقة أبدية عبر التاريخ منذ مصر والصين والهند وفارس وحضارات ما بين النهرين وكنعان عندما كان مركز العالم تحيط به الأطراف. وقد تجلى ذلك فى علم رسم الخرائط، وكيف وضعت الدولة المركزية نفسها فى الوسط، يحيط بها العالم كله شرقها وغربها وشمالها وجنوبها. كانت آسيا مركز العالم قبل أوروبا فى الخرائط. وبينهما كان العالم الإسلامى الذى جمع بين القارات الثلاث القديمة أفريقيا وآسيا وأوروبا قبل أن تظهر الأمريكيتان، الشمالية والجنوبية على الخرائط، ويدخلان فى مسار التاريخ، ثم يسيطر التاريخ الحديث على التاريخ القديم كله. الصراع بين المركز والأطراف إذن صراع أبدى مثل «الحرافيش» و«التوت والنبوت».

وظهر الإسلام منذ أربعة عشر قرنا فاتحا مركزا جديدا للعالم من قلب شبه الجزيرة العربية بين آسيا وأفريقيا بعد أن ضعف المركزان الشرقى فى آسيا، فارس، والغربى فى أوروبا، روما. فقد أنهكتهما الحروب المتبادلة دون أن يكتب النصر نهائيا لا إلى فارس ولا إلى الروم ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ١ ـ ٤]. وانتشرت القوة الجديدة بفعل قوانين التاريخ، شرقًا فى آسيا وغربًا فى أفريقيا وأوروبا حتى توحد التاريخ القديم فى مركز حضارى جديد، أبدع العلوم والفنون والثقافات، وقاد العالم على مدى سبعة قرون سماها الغرب العصر الوسيط بالنسبة له حيث كان متعلما. وهى بالنسبة لنا عصرنا الذهبى الأول عندما كنا معلمين للغرب.

ثم توالت عليه فى لحظة ضعفه وتفككه إلى دويلات وأمصار. غزوات من الغرب، حروب الفرنجة والتى سماها الغرب الصليبية. وصمد لها صلاح الدين. وغزوات

(*) جريدة الاتحاد: ٢٥ سبتمبر ٢٠٠٤م.

أخرى من الشرق، التتار والمغول. وتصدى لهم المماليك فى مصر والشام فى عين جالوت ومرج دابق. وما خسره العالم الإسلامى فى الغرب، الأندلس كسبه، الأتراك فى الشرق، القسطنطينية. وما خسره فى الشمال حربا بانحسار الحضارة الإسلامية عن الشاطئ الشمالى للبحر الأبيض المتوسط كسبه المسلمون فى إفريقيا سلما عبر التجارة والتزاوج والطرق الصوفية.

وحافظت دولة الخلافة على مركزية العالم الإسلامى بالرغم من ضعفها وتفككها وعيوبها الداخلية. فقد تباطأت فى الإصلاح. واستعاضت عنه بالتسلط والقهر. ولم يكن النظام «المللى» على قدم المساواة بين الأقوام والشعوب نظرا لسيطرة العنصر التركى، فى حين ساوى «ميثاق المدينة» بينها. ولما تكالبت قوى الإمبراطورية الغربية على «الرجل المريض» أراد محمد على تقويتها بتحويل المركز إلى مصر. وبدأت قوة جديدة فى قلب العالم القديم الجديد تنمو فى أفريقيا وآسيا حتى تصدت لها القوى الغربية، فرنسا وإنجلترا خاصة، للقضاء عليها، وتقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية. وقضى على دولة محمد على. واستعمر العالم الإسلامى كله من القوى الغربية وروسيا القيصرية بل والثورة البولشفية.

وجاءت حركات التحرر من الاستعمار داخل أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية لتكوِّن مركز ثقل جديد فى العالم الثالث منذ باندونج فى عام ١٩٥٤. وجسدته الثورة المصرية أولا ثم القومية العربية ثانيا ثم الناصرية ثالثا. وأصبحت مصر والهند ويوغوسلافيا تمثل حيادا إيجابيا فى عصر الاستقطاب والحرب الباردة. وأصبحت أصوات العالم الثالث تمثل ثلاثة أرباع الأصوات فى الأمم المتحدة، وتمثل شعوبه أربعة أخماس سكان المعمورة.

وبعد نهاية عصر الاستقطاب وتفرد الولايات المتحدة الأمريكية بالعالم، اقتصاديا باسم العولمة، وعسكريا باسم معاداة الإرهاب انتقلت المركزية الأوروبية إلى المركزية الأمريكية التى تقوم بالدور الاستعمارى القديم لأوروبا. تتجاوز القوانين الدولية، وميثاق الأمم المتحدة. وتعتدى على أفغانستان والعراق وتقضى روسيا على استقلال الشيشان. ومازال التهديد ماثلا ضد سوريا والسودان وإيران من أجل تقطيع أوصال مصر فى الشمال والجنوب والشرق. وتستفيد الإمبراطورية الجديدة وإسرائيل الكبرى

من موجات التاريخ بين الصعود والهبوط. فإذا كانت حركات التحرر من الاستعمار فى الخمسينيات والستينيات تمثل الموجة الصاعدة، وفى السبعينيات والثمانينيات تمثل الموجة الساكنة فإنها فى التسعينيات وأوائل هذا القرن تمثل الموجة الهابطة. جاءت حركة الاستعمار ثم حركة التحرر من الاستعمار ثم عودة الاستعمار من جديد. وقد تتلو ذلك موجة صاعدة جديدة من الحركات المناهضة للعولمة والعدوان على الشعوب. فالتاريخ مستمر ولا نهاية له، والموجات تحملها مياه البحار.

وتفتتت دولة الخلافة. ولم يشعر العرب بخسارتها لأنهم وجدوا بديلا عنها فى القومية العربية. ولما تفتتت القومية العربية وتحولت إلى قطريات وربما إلى عرقيات وطائفيات تبعثر العرب والمسلمون إلى مراكز جذب خارجهم بعد أن أصبح الداخل طاردا. فأصبحت أواسط آسيا والجمهوريات الإسلامية المستقلة طرفا لمركز جديد هو موسكو حيث عادت روسيا القيصرية للتوسع فى مجالها الحيوى. وأصبحت طشقند وسمرقند وبخارى وباكو وفرغانة أقرب إلى الوسط الأسيوى منه إلى الوسط العربى الإسلامى فى دمشق أو بغداد أو القاهرة. بل لقد نافست الصين روسيا كمركز جذب للمسلمين فى منغوليا وسنكيانج. ودخلت إسرائيل الآن على الخط وأصبحت مركز جذب للجمهوريات الإسلامية الآسيوية فى غيبة العرب فى مغربهم والمسلمين فى جنوبهم. بل إن إسرائيل تحدِّث سلاح الطيران الصينى. وتتحول سياسة الاتحاد السوفييتى التقليدية المناصرة إلى حركات التحرر العربى إلى تأييد إسرائيل انتقاما من المقاومة الشيشانية والعرب الأفغان. بل إن تركيا نفسها دولة الخلافة أصبح الغرب مركز جذب لها منذ الثورة الكمالية. ومازالت تسعى إلى الدخول فى الاتحاد الأوروبى بعد أن أصبحت عضوا فى حلف شمال الأطلنطى. بل تكوّن حلف تقليدى بينها وبين إسرائيل تحاول الفكاك منه. والخليج نفسه تتجاذبه مراكز جديدة نحو آسيا من خلال الشيعة إلى إيران أو الباشتون إلى باكستان. فهو آسيوى بسكانه وربما بفرقه أو نحو المركز القديم فى شبه الجزيرة العربية الذى هو الآن فى مهب الريح أو نحو الغرب صاحب القوة العسكرية والاقتصادية للدفاع عنه ضد الأطماع فيه من شرقه ومن شماله، ولاستثمار عائدات النفط فى مصارفه وشركاته. وتنافست الهويات العربية والأفريقية فى الدول الأفريقية ذات الثقافات المتعددة، السودان، ومالى، وتشاد، والسنغال، بين الأفريقية والعروبة، بين الفرانكفونية والأنجلوفونية، بين عجز العرب

صديق الأمس وإغراءات إسرائيل صديق اليوم. والمسلمون فى جنوب شرقى آسيا، ماليزيا وإندونيسيا مشغولون بالنهضة الصناعية الجديدة، وبإعطاء نموذج النهضة الآسيوى، وبالحفاظ على وحدة الأوطان من مخاطر التفتيت بعد تيمور الشرقية، والتوتر فى إقليم أتشيه، وضرب العملة، والتجانس القومى بعد أن خبت روح «البانتيسيلا» التى صاغها سوكارنو. وغاب مهاتير عن الأنظار لإعطاء درس فى تداول السلطة وإن بقى نموذجه صامدا.

وانجذب مسلمو أفريقيا إلى مراكز جذب جديدة خارج القلب العربى. أصبح الغرب أو إسرائيل أكثر إغراء لهم بالعون الاقتصادى والتنمية البشرية بعد أن توقف العرب عن ممارسة دورهم فى تنمية أفريقيا، وبعد انتهاء حركة التحرر الوطنى. ولماذا يكون الأفارقة ملكيين أكثر من الملك بعد أن اعترفت الشقيقة الكبرى بإسرائيل، وتلتها الأردن وموريتانيا، والباقى قادم من خلال مكاتب الاتصال أو بعد التسوية وإقامة دولة فلسطين المستقلة وانتهاء الصراع العربى الإسرائيلى بعد الانسحاب من الأراضى المحتلة فى سوريا ولبنان.

بل إن العرب أنفسهم بعد تفتيتهم إلى دول وطنية مستقلة بعد القضاء على دولة الخلافة وبعد انحسار المد العربى الذى حمى الوطن العربى من عودة الاستعمار والتوسع الصهيونى بعد هزيمة ١٩٦٧، عاد الاستعمار إليهم من جديد بعد تبعية الدول المستقلة للقوة الكبرى وإسرائيل الكبرى لتفتيت الأوطان إلى فسيفساء عرقى وطائفى. فيتحول الوطن العربى إلى دويلات سنة وشيعة وكردية وتركمانية وعربية وبربرية ومسلمة وقبطية وزنجية. فالعولمة ليست ذات اتجاه واحد، توحيد المركز الممثل فى مجموعة الدول الثمانية بل أيضا تفتيت الأطراف فى دول العالم الثالث فى أفريقيا وآسيا وبخاصة قبل أن يوحدها المد الإسلامى بعد تراجع القومى بل والمد الوطنى.

فإلى أى مدى يستمر الوطن العربى مركز طرد بعد أن كان مركز جذب؟ وإلى أى حد يستطيع استقطاب تركيا وإيران وباقى دول الجوار؟ وإلى أى مدى هو قادر على أن يجد أحلافا جديدة فى إندونيسيا وماليزيا والصين واليابان ابتداء من الكومنولث الاقتصادى إلى الكومنولث السياسى حتى يتكون قطب ثان من دول آسيا وأفريقيا، وهو دائرة تحرك الوطن العربى والعالم الإسلامى فى مواجهة المحور الغربى، الأوروبى الأمريكى؟

وهل ستظل مصر ساكنة بلا حراك، وبلا خيال سياسى الذى دفع عبد الناصر إلى التوجه إلى باندونج فى عام ١٩٥٥م، وتأميم القناة فى عام ١٩٥٦م، وتمصير الشركات الأجنبية فى عام ١٩٥٧م، لتمويل بناء السد العالى فى عام ١٩٦٢م؟ هل سيقتصر دورها على الوساطة بين فلسطين وإسرائيل، وتدريب الشرطة الفلسطينية أو بين سوريا والولايات المتحدة الأمريكية، حقنا للدماء، وتخفيفا للتوتر، دون أن تدخل إلى التاريخ من الباب الواسع، وتصبح مركزا لتحالفات جديدة مع دول الجوار للوطن العربى بناء على تغير موازين القوى فى العالم؟ هل تظل ساكنة وهى تحاصر من الشمال فى الشام ومن الجنوب فى السودان، وفى الشرق بتهديد إيران وفى الغرب بدول المغرب العربى التى تتسابق نحو التعاون مع الاتحاد الأوروبى، فأوروبا أقرب لها من المشرق العربى؟

لقد أعز الله الإسلام بفتح مصر. ومنها انطلق فتح المغرب العربى حتى الأندلس. وأعز الله الإسلام بمقاومتها الصليبيين من الغرب وبصد غزوات التتار والمغول من الشرق ابتداء من مصر والشام. كانت مصر مركز التحرك الجديد من محمد على حتى عبد الناصر. والخناق على الوطن العربى والأمة الإسلامية خناق حول مصر حتى تسقط صريعة وينتهى المركز التاريخى الذى طالما وحّد الأطراف. وفى الحديث «جندها خير أجناد الأرض، وشعبها مرابط إلى يوم القيامة»، وفى شعر حافظ إبراهيم:

أنـــا إن قـدر الإلـــه مماتـــى لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى

* * *

١٢- الإصلاح ضرورة عاجلة (*)

تردد فى فكرنا المعاصر منذ قرنين من الزمان عدة مفاهيم تختلط أحيانًا، وتتمايز أحيانًا، مثل مفاهيم الإصلاح، والنهضة، والتحديث، والتجديد، والتغير الاجتماعى، والثورة. تظهر ثم تختفى طبقًا للتيار السائد ونوعية نظام الحكم. وأحيانًا تستعمل على التبادل لدرجة إمحاء الفروق بينها. وتساءلنا: إلى أى جيل نحن ننتسب؟ وفى أى مرحلة من التاريخ نحن نعيش؟ بل لقد غالى البعض وقال: إنما نحن جيل الإفلاس التاريخى، وهى مرحلة انتقال طبيعية من مرحلة إلى مرحلة. فلا القديم قد انتهى نهائيًا ولا الجديد قد بدأ بعد، مرحلة مخاض، وجود شىء ولكن لم يولد بعد.

يرتبط «الإصلاح» بالدين فى مصطلح «الإصلاح الدينى». وهو الإصلاح الذى كان فى مواجهة الاستعمار فى الخارج والقهر فى الداخل كما مثلته مدرسة الأفغانى وعبد الله النديم وعلال الفاسى وعبد الحميد بن باديس ومالك بن نبى والمهدية والسنوسية وعز الدين القسام، بين التأصيل النظرى والجهاد العملى. وواكبه مصطلح «النهضة» الذى يشمل تطوير الإصلاح إلى نهضة شاملة لبناء الدولة. وازدوج مع ألفاظ أخرى مثل «التحديث» من أجل بناء الدولة أو تحديثها، ومثل «التجديد» الذى اتجه نحو الفكر مثل «تجديد الفكر الدينى» أو «تجديد الفكر العربى». وقد يكون التحديث للعقل مثل «تحديث العقل العربى». فإذا توجه الهم نحو الواقع يبرز تعبير «التغير الاجتماعى» من أجل تغيير بنية المجتمع سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وثقافيًا. ومنذ منتصف القرن العشرين استعمل لفظ «الثورة» بعد الثورات العربية الأخيرة واقترنت بالعربية أو بالقومية. فكلما حدث تراكم تاريخى كاف فى النهضة أو الإصلاح أو التحديث أو التجديد أو التغير الاجتماعى وقعت ثورة كما حدث فى مصر فى ثورة عرابى عام ١٨٨٢م بعد التراكم التاريخى الذى حدث فى أثناء بناء دولة محمد

(*) جريدة الاتحاد: ٩ أكتوبر ٢٠٠٤م.

على، ثم ثورة عام ١٩١٩م بعد تراكم الحركة الوطنية ضد الاحتلال، ثم ثورة عام ١٩٥٢م بعد النضال الوطنى فى الأربعينيات ضد الاستعمار والقصر وفساد الأحزاب والإقطاع.

والآن يعود السؤال من جديد بعد التراكم التاريخى الذى حدث منذ انهيار الثورة العربية الحديثة بعد هزيمة يونيو- حزيران عام ١٩٦٧م، وعقد معاهدات السلام مع إسرائيل منذ عام ١٩٧٩م فى مصر ثم فى الأردن وموريتانيا، وفتح مكاتب اتصال أو تجارة فى المغرب وتونس وبعض دول الخليج، وبعد العدوان الأمريكى على العراق، وابتلاع الكيان الصهيونى كل فلسطين، والعدوان الأمريكى على دول الجوار فى المحيط الإسلامى فى أفغانستان، والعدوان الروسى على الشيشان، والهندى على كشمير، وتهديد سوريا والسودان وإيران، وتهميش مصر، وقص أجنحتها فى الشمال فى الشام، وفى الجنوب فى السودان من أجل نزع القلب من الجسد حتى تشل الأطراف.

ثم انقلبت هذه المفاهيم كلها رأسا على عقب منذ ربع قرن أو يزيد. إذ تحول الإصلاح إلى سلفية ومحافظة دينية فى الغالب على المستوى النظرى، وإن بقى الجهاد ضد الاستعمار والصهيونية على المستوى العملى. وانهارت النهضة الحديثة بعد محاولات إعادة الدولة الوطنية المستقلة بعد أن احتلت الأوطان وتابعت النظم السياسية القوى الكبرى، الغرب الأوروبى أولا ثم الغرب الأمريكى ثانيا. وانفرط عقد القومية. وزاد التباعد بين الأغنياء والفقراء، فالرأسمالية لم تعد جريمة. ولما غابت القيم الليبرالية مثل حرية المنافسة وقوانين السوق ضد الاحتكار تحولت الرأسمالية التى مثلها القطاع الخاص بعد بيع القطاع العام إلى فساد وتهرب من الضرائب، وتهريب الأموال، والإثراء السريع. وانتهت عقود التنمية المستقلة والتصنيع والاقتصاد المستقل. وتحولت إلى الاستيراد والاستهلاك والاقتصاد التابع. وتراكمت الديون الخارجية. وعجز ميزان المدفوعات، وهربت رؤوس الأموال إلى الخارج. وزادت فضائح نواب القروض، وشركات توظيف الأموال. ونهبت الأوطان من داخلها مرة ثانية بعد أن نهبت من خارجها أولا من قوى الاستعمار.

وأصبحت النظم الحاكمة نظما للتبعية للخارج، والقهر والتسلط فى الداخل. وكلما زاد المجتمع تفسخا زاد القهر والتسلط حفاظا على نظم الحكم بعد أن أصبح

الحكم غاية فى ذاته وليس وسيلة للحفاظ على استقلال الأوطان من العدوان الخارجى أو تحقيق المصالح العمومية ضد الفساد الداخلى. وتراجعت المعارضة السياسية إلى الحد الأدنى لأنها كانت خافتة فى عصر الثورات العربية والزعامة الفردية. واستكانت الجماهير لأنها لم تتعود على الثورة بعد أن تم احتكارها من الضباط الأحرار وبعد القضاء على الجناحين الرئيسيين فى الشارع السياسى: الإخوان المسلمين والشيوعيين أى الحركة الإسلامية والحركة اليسارية. وبعد القضاء على قلب الحركة الوطنية، حزب الوفد الذى قاد الاستقلال الوطنى حتى إلغاء معاهدة عام ١٩٣٦م، والمحافظة على وحدة مصر والسودان.

وحدث تراكم تاريخى جديد نتج عنه بُعْد المسافة بين الحاكم والمحكوم. وأصبحت نظم الحكم محاصرة بين المطرقة والسندان، مطرقة الخارج وسندان الداخل. وضرب الحصار التام على الأوطان. وأصبحت الشعوب محاصرة فى الزمن. تحن إلى الماضى الإسلامى البعيد أو الليبرالى والقومى القريب. ويهرب البعض إلى المستقبل بالهجرة الجسدية أو بالتبعية للغرب والانبهار بنموذجه. وتعجز الفعاليات الاجتماعية، وتتراوح بين حركات سرية تحت الأرض تمارس العنف بين الحين والآخر وسرعان ما تكتشفها أجهزة الأمن، وبين تعاون بعض المثقفين مع نظم الحكم لتجسير الفجوة بين الأمير والغفير، وتنتهى إلى الانتهازية والتكسب من الاثنين والعمل لصالحها الخاص. وتنعزل الأغلبية عن العمل السياسى، تجرى وراء لقمة العيش وتكد وتسعى فى الحياة وترضى بقدرها ورزقها ونصيبها المكتوب.

ولما تباطأ الإصلاح واشتدت حدة انفعالات الغضب والحاجة إلى التمرد، والثورة المكبوتة فى القلوب، وجرح الكرامة الوطنية لسيل الدماء يوما فى فلسطين والعراق، وزاد الإحساس بالعجز والإحباط بدأ المجتمع فى التفكك. وكلما زادت الضغوط من أعلى من أنظمة الحكم خوفا من تحرك الشعوب، زاد التفسخ الاجتماعى والسياسى من أسفل. وتعددت الحركات السرية، ونشطت جماعات العنف المسلح لتغير الواقع باليد بعد أن منع اللسان من التعبير، ولم يستطيع أضعف الإيمان بالقلب على مزيد من الانتظار والتحمل. فللصبر حدود. وتحول الفعل إلى رد فعل، فعل الصمت إلى فعل الصراخ، ومن تقييد الأفواه فى الداخل إلى العرائض الإصلاحية فى الخارج وعلى

شبكات المعلومات، ومن غياب المؤسسات الدستورية التى تدافع عن حقوق الشعوب وتحدد العلاقة بين الحاكم والمحكوم إلى الرفض المطلق والكفاح المسلح. وتحول النظام الحديدى بفعل الكبت والضغط إلى نظام بلا قاعدة والقدر يغلى. ولا منفس له إلا من أسفل.

وبعد أن تباطأ الإصلاح فى الداخل بدأ يُفرض من الخارج فى مشروعات «الشرق الأوسط الكبير» لصالح القوى الكبرى. فباسم الحرية والديموقراطية يتم فتح الأسواق، وتغيير مناهج التعليم، والدفاع عن القطاع الخاص والاستثمار الأجنبى. وإن لم يتم ذلك طوعا عن طريق إيجاد نظم حكم تنفذ ما يُطلب منها، فإنه يتم كرها عن طريق العدوان المباشر كما حدث فى العراق أو التهديد بالتدخل الأجنبى تحت ستار الشرعية الدولية وقرارات الأمم المتحدة كما هو الحال الآن فى تهديد السودان وسوريا وإيران.

أصبح «الإصلاح» الآن شعارا مرفوعا من الخارج بعد أن تباطأ الداخل. وتحول المطلب الوطنى إلى كلمة حق يراد بها باطل. بل لم تعد الحركات الوطنية قادرة على استعمال مفاهيم «الحرية» و«الديموقراطية» و«المجتمع المدنى» و«الإصلاح» و«المواطنة» لأنها أصبحت لغة العدوان الخارجى على مصالح الشعوب. فإما أن تسرع نظم الحكم بتحقيق مطالب الإصلاحيين فى الوطن العربى والعالم الإسلامى كجزء من جدول الأعمال الوطنى وإلا اتخذ ذريعة للعدوان على الأوطان.

إن محاصرة النظم السياسية يجعلها ضحية بين مطرقة الخارج وسندان الداخل. إذا ضحت بالخارج وتحالفت مع الداخل فلن يرضى عنها الخارج وسيطيح بها لأن قانون الخارج هو دخول الجميع بيت الطاعة حتى تستقر العولمة، وتتفرغ مجموعة الثمانية لنهب ثروات العالم. وإذا تحالفت مع الخارج ضد الداخل فإنها ستكون يوما ضحية ثورات الشعوب فى الداخل التى قارب فيها كم الغضب إلى حد الانفجار. وهما اختياران، كلاهما مر. ومن ثم لا مناص إلا من اختيار أهون الضررين، وهو التحالف مع الداخل ضد التبعية للخارج. فالشعوب تقف مع حكامها الوطنيين كما وقفت الشعوب العربية مع الثورات العربية الأخيرة، مع عبد الناصر فى تأميم قناة السويس، وضد العدوان الثلاثى فى عام ١٩٥٦م، ومع حرب أكتوبر فى عام ١٩٧٣م، وكما صمد محمد مهاتير ضد الضغوط الخارجية من الاستعمار والصهيونية، وبنى الدولة الماليزية الحديثة بمعدلاتها فى التنمية بعد الصين.

يبدو أن نهاية القاع قد قربت، ووصل العرب إلى نهاية النفق المظلم بعد أن أغرقته دماء الشهداء فى فلسطين والعراق. ومازالت أمام النظم العربية فرصة تاريخية للتحالف مع شعوبها «اليوم خمر وغدا أمر» من أجل الثأر لدم كليب، وإلا فالطوفان قادم. وتفجر دماء الشهداء صخور النفق، وتجرف سدوده، من أعلى ومن أسفل، من الحاكم والمحكوم، ومن أمام ومن خلف، عجزا عن التقدم إلى الأمام ودون الهروب إلى الخلف. والتاريخ لا يتوقف بل تتباطأ حركته. والمياه الراكدة على السطح قد تخفى تحتها المياه الجوفية العارمة. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١].

لم تخمد النار بعد فى الهشيم، ومازالت العنقاء قادرة على البعث من خلال الرماد. فمصر والشام شعوب مازالت تنبض بالحياة فى مقاومة التطبيع. تحن إلى القومية والناصرية وإلى حياة العزة والكرامة. ومازالت الحركة الإسلامية قادرة على الجهاد وعدم الاستسلام. واليمين الأمريكى والصهيونى ليس باقيا إلى الأبد بعد سقوط القتلى من الأمريكيين والإسرائيليين فى العراق وفلسطين. ولم تنفع معاداة الناصرية ولا التنكر للقومية ولم يشفع الانبهار بالغرب والتبعية له. ولم تنجح محاولات الخلط بين الإرهاب والمقاومة. فمازال بصيص من ضوء فى نهاية النفق.

***

١٣- الأحزاب الإسلامية بين الشكل والمضمون(*)

ظهرت فى المدة الأخيرة عدة أحزاب وحركات سياسية إسلامية لا تطلق على نفسها الأحزاب الإسلامية بل أحزاب العدالة والتنمية والمساواة. تتجاوز الشكل إلى المضمون، والشعار إلى التطبيق. ولا تهدف فقط إلى الوصول إلى الحكم بل إلى قضاء مصالح الناس. وهو تقدم كبير بالنسبة للأحزاب الإسلامية التقليدية.

فقد سمت بعض الأحزاب نفسها إسلامية أولا حتى تكسب شرعية من التاريخ، وتجد جذورا راسخة فى الموروث الثقافى الذى أصبح ثقافة شعبية للناس. فالناس لا تعرف الليبرالية أو الماركسية. بل إن لفظ «الديموقراطية» بالرغم من شيوعه وتعبيره عن حاجة الناس إلى الحرية فإنه لفظ أعجمى لا يجند الناس، ولا يحزب الجماهير. إنما الذى يحركهم قولة عمر بن الخطاب: «لماذا استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا» أو قولة عرابى للخديوى توفيق: «إن الله خلقنا أحرارًا ولم يخلقنا عقارا. والله لا نورّث بعد اليوم». كما أن تسمية بعض الأحزاب نفسها «إسلامية» يختزل الكل إلى الجزء. فالإسلام تراث الجميع، لا يستأثر به حزب واحد. الكل مسلمون سواء كان فى حزب إسلامى أو وطنى أو ليبرالى أو ديموقراطى أو اشتراكى. التسمية إذن طلب للقوة، وإعطاء النفس ميزة على الغير، وكأن الحزب الإسلامى وحده هو الذى ينتسب إلى الإسلام دون غيره من الأحزاب «العلمانية».

وقد يعنى الحزب الإسلامى تطبيق الشريعة الإسلامية. وهو أمر محبب للأتقياء الذين يودون الإسلام الكامل، عقيدة وشريعة، وللمحافظين الذين يرون الإسلام شعائر وقوانين. مع أن الشريعة ليست هدفا فى حد ذاتها بل وسيلة لتحقيق مقاصدها وهى المحافظة على الحياة (النفس) والعقل، والحقيقة أو المعيار أو القيمة (الدين)،

(*) جريدة الاتحاد: ١١ ديسمبر ٢٠٠٤م.

والكرامة والشرف (العرض)، والثروة الوطنية والمال العام (المال). الشريعة كل لا يتجزأ، حقوق وواجبات. العقوبات فيها نتيجة لعدم الالتزام بالواجبات. وإذا كان كل واجب يقابله حق فأين الحقوق؟ أين حقوق الناس فى الطعام والكساء والسكن والتعليم والصحة أى حاجاتهم الأساسية التى يكفلها لهم بيت المال؟ ليس المقصود من تطبيق الشريعة التخويف والردع. فالشريعة أتت هادية وليست جابية. ولا تطبق فقط على الفقراء بل على الأغنياء أيضا حتى لا ينطبق علينا حديث «إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد».

ولهذا السبب تتجنب بعض الأحزاب الإسلامية تسمية نفسها كذلك حتى لا تستأثر بلفظ «إسلامى» دون غيرها فتعزل نفسها عن باقى الأحزاب أو تسبب عداء العلمانيين وربما الدولة لها. تسمى نفسها حزب «الوسط» فالإسلام دين الوسط، والأمة الإسلامية أمة الوسط، والسلوك الإسلامى سلوك الوسط «كنتم أمة وسطًا»، «خير الأمور الوسط». وقد ترضى الدولة التى ستسمح بقيام الحزب بالتسمية لأنها تدل على مناهضة التطرف والمتطرفين، والجماعات الإسلامية الجذرية التى تمارس العنف فى الداخل والخارج. ويعيب ذلك أن الأحزاب الحاكمة تختار نفس التسمية لتدل بها على مناهضتها للتطرف الإسلامى والتطرف الشيوعى. ومن ثم يستعمل لفظ «الوسط» من الحكم والمعارضة على حد سواء فيفقد دلالته. يُحسّن صورة الحزب الحاكم، ويضعف صورة حزب المعارضة.

وقد يكون الاسم «جبهة الإنقاذ» سواء بذكر «الإسلامى» أو دونه. وإن لم يظهر لفظ «إسلامى» فإنه مع ذلك يدل على غرور واضح. فهو المنقذ من الضلال. هو الفرقة الناجية وغيرها من الأحزاب الفرق الهالكة. تخلت عن الشكل دون المضمون، وعن الاسم دون القصد. وقد يكون الاسم حزب «النهضة». والنهضة والإصلاح ألفاظ تعودنا عليها منذ قرنين من الزمان. ومازالت مؤثرة فى وجدان الناس. فمن يرفض النهضة أو لا يعمل لها، من يرفض النهوض والبعث بدلا من الانهيار والسقوط؟ وقد يفضل تنظيم آخر إسقاط لفظ «حزب» دون لفظ «إسلام» كما هو الحال فى جماعة «الإخوان المسلمين». فهى جماعة أو تنظيم أو حركة. لذلك لم ينطبق عليها قانون حل الأحزاب الذى صدر فى أول الثورة المصرية عام ١٩٥٣م. ويظل الوضع مريبًا: حزبًا

أو غير حزب. وقد يعطى ذلك الدولة حجة عدم الاعتراف بالتنظيم بوصفه حزبًا سياسيًا إلا إذا أعلن ذلك فى برنامج على غير أساس دينى. واستعمال لفظ «المسلمون» يوقع فى نفس المحظور، وهو الاستئثار بلفظ عام لصالح جماعة خاصة. لذلك ثار نقاش: هل هم جماعة المسلمين أم جماعة من المسلمين؟ هل يمثلون كل المسلمين ومن لم يكن منهم فإنه ليس مسلما أم أنهم جماعة إسلامية مثل غيرهم؟ وطغى النقاش النظرى الفقهى على الحوار الوطنى وقضاء مصالح الناس.

لذلك تقدمت بعض الأحزاب الإسلامية تقدما جوهريا بتجاوز الشكل إلى المضمون، وعدم استعمال لفظ «إسلامى» لمحدداته، وعدم إثارة الدولة العلمانية أو الأحزاب العلمانية، والدخول فى المعترك السياسى والحوار الوطنى من أوسع الأبواب بل والوصول إلى السلطة والحكم. ففى المغرب هناك حزب «العدالة والتنمية». وهو الحزب الحاكم بعد الحزب الاشتراكى الذى كان فى المعارضة وحزب الاستقلال الذى كان الحزب الحاكم التقليدى الذى قاد الحركة الوطنية من ثنايا الحركة الإسلامية فى شخص علال الفاسى. فأهم هدفين لأى حزب إسلامى هما العدالة والتنمية، توزيع الدخل بما يحقق أكبر قدر ممكن من المساواة، وزيادة الدخل القومى من أجل ارتفاع مستوى الدخل الفردى. والدفاع عن المال أحد مقاصد الشريعة التى من أجلها وضعت الشريعة ابتداء. وحدث نفس الشيء فى تركيا. فالحزب الحاكم هو أيضا حزب «العدالة والتنمية» ذو التوجه الإسلامى. ويعنى الإسلام الاتجاه الوطنى المستقل تجاه القوى الكبرى خاصة الولايات المتحدة الأمريكية وكما ظهر أخيرًا فى أثناء رفض تركيا مرور القوات الأمريكية عبر أراضيها لغزو العراق مع أنها عضو فى حلف شمال الأطلنطى، وفى نفس الوقت التصنيع. واستطاع تحييد الجيش الذى كان يترصد للحركات الإسلامية. وأنهى تجربة أربكان الذى أعلن بصراحة انتسابه للأيديولوچية الإسلامية، وأثار فى الناس حلم الخلافة. وجعل قضيته الرئيسية الحجاب بوصفه رمزًا. وقد تعلم من التجربة فسمى حزبه الأول حزب «الأمل»، وحزبه الثانى «السعادة». وهى كلمات إنشائية فضفاضة خالية من أى مضمون اجتماعى. وتعوض الناس عن الحالة التى هم فيها من يأس وشقاء. بل إن أحد أحزاب المعارضة فى السودان فى منطقة دارفور هو حزب العدالة والمساواة. العدالة فى توزيع السلطة والثروة بين شرقى السودان وغربية مثل توزيعهما بين شمالى السودان وجنوبية. مسلمون فى مواجهة مسلمين.

وعلى هذا النحو يمكن للأحزاب الإسلامية أن تحقق أهدافها متجاوزة اللفظ إلى المضمون. وتكون قادرة على الحوار مع باقى الأحزاب «العلمانية» التى قد تكون أقرب إلى مقاصد الشريعة من الأحزاب «الإسلامية» مثل حزب «الكرامة» أو حزب «الغد» أو حزب «المستقبل». كما يمكنها الدخول فى حوار مع باقى الأحزاب الليبرالية والاشتراكية والديموقراطية والجمهورية وأحزاب العمال والمحافظين. فالبرنامج الحزبى مضمون وليس شكلا.

مهمة الأحزاب الإسلامية إذن الدخول فى معترك الحياة السياسية والدعوة إلى حوار وطنى حول مضمون جبهة وطنية تحقق أهداف المجتمع ومصالح الناس. وإذ كان الناس فى حاجة إلى الخبز والحرية تستطيع الأحزاب الإسلامية تسمية نفسها أحزاب العدالة والحرية. ومن ثم يلتف حولها الجميع لما لها من قدرة على تجنيد الجماهير. والمهم فى الإسلام هو المضمون لا الشكل، المعنى وليس اللفظ، الواقع وليس النص طبقا للقول المأثور: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأشكالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

* * *

• كتب للمؤلف •

أولا: تحقيق وتقديم وتعليق:

١- أبو الحسين البصرى: المعتمد فى أصول الفقه، جزءان: المعهد الفرنسى بدمشق عام ١٩٦٣-عام ١٩٦٥م.

٢- الحكومة الإسلامية للإمام الخمينى، القاهرة عام ١٩٧٩م.

٣- جهاد النفس أو الجهاد الأكبر للإمام الخمينى، القاهرة عام ١٩٨٠م.

ثانيًا: إعداد وإشراف ونشر:

١- اليسار الإسلامى، كتابات فى النهضة الإسلامية، العدد الأول، المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة عام ١٩٨١م.

ثالثًا: ترجمة وتقديم وتعليق:

١- نماذج من الفلسفة المسيحية (المعلم لأوغسطين، الإيمان باحثًا عن العقل لأنسليم، الوجود والماهية لتوما الأكوينى)، الطبعة الأولى، دار الكتب الجامعية، الإسكندرية عام ١٩٦٨م، الطبعة الثانية، الأنجلو المصرية، القاهرة عام ١٩٧٨م، الطبعة الثالثة، دار التنوير، بيروت عام ١٩٨١م.

٢- أسبينوزا: رسالة فى اللاهوت والسياسة، الطبعة الأولى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة عام ١٩٧٣م، الطبعة الثانية الأنجلو المصرية، القاهرة عام ١٩٧٣م، الطبعة الثالثة، دار الطليعة، بيروت عام ١٩٨١م.

٣- لسنج: تربية الجنس البشرى وأعمال أخرى، الطبعة الأولى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة عام ١٩٧٧م، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت عام ١٩٨١م.

٤- جان بول سارتر: تعالى الأنا موجود، الطبعة الأولى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧م، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢م.

رابعًا: مؤلفات بالعربية:

١- قضايا معاصرة، الجزء الأول، فى فكرنا المعاصر، الطبعة الأولى، دار الفكر العربى، القاهرة عام ١٩٧٦م، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت عام ١٩٨١م، الطبعة الثالثة، مجد، بيروت عام ١٩٨٧م.

٢- قضايا معاصرة، الجزء الثانى، فى الفكر المعاصر، الطبعة الأولى، دار الفكر العربى، القاهرة عام ١٩٧٧م، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت عام ١٩٨٢م، الطبعة الثالثة، مجد، بيروت عام ١٩٨٨م.

٣- التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم، الطبعة الأولى المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة عام ١٩٨٠م، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت عام ١٩٨١م، الطبعة الثالثة، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٧م، مجد، بيروت عام ٢٠٠٠م، عام ٢٠٠٢م.

٤- دراسات إسلامية، الطبعة الأولى، الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٨١م، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت عام ١٩٨٢م.

٥- من العقيدة إلى الثورة، محاولة لإعادة بناء علم أصول الدين، = (خمسة مجلدات)، الطبعة الأولى، مدبولى، القاهرة عام ١٩٨٧م، الطبعة الثانية، المركز الثقافى العربى، بيروت عام ١٩٨٨م.

٦- دراسات فلسفية، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٨م، دار التنوير (قرطبة)، بيروت عام ١٩٩٠م.

٧- الدين والثورة فى مصر (عام ١٩٥٢م - عام١٩٨١م)، (ثمانية أجزاء)، مدبولى، القاهرة عام ١٩٨٩م.

٨- حوار المشرق والمغرب، توبقال، الدار البيضا عامء ١٩٩٠م (بالاشتراك مع محمد عابد الجابرى)، مدبولى، القاهرة عام ١٩٩١م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت عام ١٩٩٥م.

٩- مقدمة فى علم الاستغراب، الدار الفنية، القاهرة عام ١٩٩١م، مجد، بيروت عام ١٩٩٤م، عام ٢٠٠٥م، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة عام ٢٠٠٥م.

١٠- هموم الفكر والوطن (جزءان)، دار قباء، القاهرة عام ١٩٩٨م، جـ١ التراث والعصر والحداثة، جـ٢ الفكر العربى المعاصر.

١١- الدين والثقافة والسياسة فى الوطن العربى، دار قباء، القاهرة عام ١٩٩٨م.

١٢- جمال الدين الأفغانى، المائوية الأولى (عام ١٨٩٧- عام ١٩٩٧م)، دار قباء، القاهرة عام ١٩٩٨م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة عام ٢٠٠٠م.

١٣- حوار الأجيال، دار قباء، القاهرة عام ١٩٩٨ .م

١٤- من النقل إلى الإبداع (تسعة أجزاء)، دار قباء، القاهرة عام ٢٠٠٠-٢٠٠٢م.

١٥- فشته، فيلسوف المقاومة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٣م، الجمعية الفلسفية المصرية، القاهرة عام ٢٠٠٣م.

١٦- من النص إلى الواقع، محاولة لإعادة بناء علم أصول الفقه، جـ١ تكوين النص، جـ٢ بنية النص، مركز الكتاب للنشر، القاهرة عام ٢٠٠٤م.

١٧- حصار الزمن، الحاضر (إشكالات)، مركز الكتاب للنشر، القاهرة عام ٢٠٠٤م.

١٨- حصار الزمن، الحاضر (مفكرون)، مركز الكتاب للنشر، القاهرة عام ٢٠٠٤م.

١٩- حصار الزمن، (علوم)، مركز الكتاب للنشر، القاهرة عام ٢٠٠٥م.

٢٠- من مانهاتن إلى بغداد، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة عام ٢٠٠٤م.

خامسا: مؤلفات بالفرنسية والإنجليزية:

(1) Les Méthodes d'Exégèse, essai sur La science des Fondements de la Compréhension, 'ilm usul al-Fiqh, le Caire, 1965.

(2) L'Exégèse de la Phénoménologie, l'état actuel de la méthode phénoménologique, et son application au phénomène religieux (Paris, 1965). Le Caire, 1980.

3- La Phénoménologie de L,Exégèse, essai d,une herméneutique existentielle à partir du Nouveau Testament, (Paris, 1966). Le Caire, 1988.

4- Religious Dialogue and Revolution, essays on Judaism, Christianty and Islam, Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo 1977.

5- Islam in the Modern World, 2 vols, I- Religion, Ideology and Development, II- Tradition, Revolution and Culture, Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo 1995, Dar Keba', Cairo 2000.

6- Cultures and Civilizations, in Conflict or Dialogue?, El Shorouk International Bookshop, Cairo 2005.

***

obeikan.com